
رابطة الأدب الإسلامي العالمية
INTERNATIONAL LEAGUE OF ISLAMIC LITERATURE
رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية
٧
لن أموت سدى
«الرواية الفائزة بالجائزة الأولى»
في مسابقة الرواية
للكاتبة/ جهاد الرَّجبي
مكتبة ونشر العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

بسم اللَّه الرَّحمنِ الرَّحِيم

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم وَمَا أُنزِلَ
إِلَيهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشتَرُونَ بِأَيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنَد رَبِّهِم إِن اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ(١٩٩) ﴾

كلمات للوداع

وقفت صامته، وهو يعد حقيبته الصغيرة.. كان يكثر من الكلمات المشرقة، ومن الأفكار البعيدة. أمسك بيدها المتجعدة، ووضع فيها المال، وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

قال مبتسماً:

- احتفظي بهذا المال... سيهدأ كل شيء ولن تجدي غير هذا منقذاً لك.

نظرت إلى الأوراق بسخرية، وقالت بعد أن أعادتها إلى جيبه بحركة عصبية:

- أنت أشد أبنائي فقراً يا وائل.

- أنا لا أفهمك... لا أفهم ما يرضيك!!

- بينما كنت تجمع تلك النقود، كانوا يجمعون الحجارة هناك.

- تحسس جيبه المحشوة بالنقود، وصاح بكل كبريائه الهائج:

- هؤلاء الأغبياء.. لتملأ الحجارة بطونهم الخاوية.. ولتعد قتلاهم إنْ استطاعت!!

نظرت إليه بفزع، وكأنه مخلوق غريب أمامها، يتلذذ بسكب

الدم حـوله، ويتـذوق آلامـهـا بلا اكتـراث... صـاحـت كـالمجنونة تبحث عن عينيه:

ليتني مِتُّ قبل أن ألدك..

نظر إليها باستياء، وقال وهو يغلق حقيبته:

- لم أر أناساً يبحثون عن الموت مثلكم!!

- مثلنا؟! ألست منا؟!

- لا أظن أن هذه الأرض تحتملنا معا.

- أنت لي.. دمك دمي.. أنت مني، فلماذا لا تكون مثلنا؟!

- الحـجـارة لعـبـة لا أتقنهـا... ربما كـان علينا أن لا نكون معاً... نحن مختلفون؟!

- الهمُّ يوحدنا.

- همومي لي وحدي.

مسحت دمعة كادت تسقط من عينيها الباهتتين، وهي تنظر إليه غير مصدقة أنه يبدأ من نقطة الصفر، وفي الاتجاه المعاكس!!.

ابتعدت بعينيها وخوفها، وقالت بيأس:

- أتعود؟!

- أمي... إني أحبك، لماذا تبتعدين هكذا؟ دعيني أرى دموعك لفراقي ولو لمرة واحدة... قد لا أعود...

ألقت برأسها على الجدار وانفجرت بالبكاء. هربت من عيونه إلى (التنور) كي تخبز الأرغفة التي أعدتها ابنتها حياة، لتوزيعها على الشبان الواقفين بحجارتهم، يقاومون الجوع والخوف واليأس المر!!

اتجه بحقيبته- وفي عينيه حزن بعيد - إلى غرفته الصغيرة، التي تطل على البحر، وجلس سارحاً بأفكاره المضطربة وفُتِحَ الباب بعنف وابتسم كعادته، وقال القادم بسخرية:

- يبدو أنني سأصبح شقيق المليونير وائل.

- أنت لا تفهمني يا عليّ!!

- أنت وحدك من يفهمك..

نظر إلى الحقيبة السوداء طويلاً، ثم قال بحيرة:

- قل لي.. ما الذي يجعلك تبتعد كالمنبوذ بلا مقابل؟!

- الدنيا تفتح أبوابها هناك، كي تحضن الباحثين عن أحلامهم.

- وهل هناك حلم أجمل من الوطن؟!

- الحياة.

- لا حياة بلا وطن.

- الحياة تخلق الوطن.. أيّ أرض تحتويني، وتعطيني ما أستحق، جديرة بأن تكون وطناً لأحلامي.

- تترك ما بيدك وتبحث عما بيد غيرك؟!

– لن أضيع عمري في استعادة شيء يمكنني الحصول عليه في أيّ مكان.

– ونحن؟! ألا تؤلمك دموع أمي؟! ألا يهزك لونُ الدم في كل مكان؟!

ارتفع صراخ (عليّ) في الغرفة، وهو يشير إلى البحر من النافذة:

– ما معنى الرحيل، إن كنت ستتركنا فلسطينياً هشّاً، لتعودَ مليونيراً أمريكياً؟!

– ابتعد عن الكلمات الفارغة، وحاول أن تضع نفسك مكاني... السيد (إدوارد) وعدني بمستقبل باهر، بنقود تملأ جيوبي الفارغة، (وجين تحبني، لقد ضغطت على أبيها بكل ما تستطيع من أجلي... وأنا أحبها... هل تجد بعد كل هذا مبرراً للبقاء؟!– دموع أمك.. قلب شقيقتك حياة... وطنك... دينك... أنت!!

– أنا؟!

– أنت من يحتاج إلينا يا وائل... بدوننا ترتمي غصناً غضناً مقطوعاً بلا أرض أو جذور.

– كفى... كفى يا عليّ، أنت تهذي في عالم يسرقة الأذكياء..

– أيّ ذكاء ذلك الذي يغلق عينيك عن حقيقتك؟!

– ما أثقل كلماتكم الواعظة.. ألم تتعلم بعضاً من ألفاظ الوداع؟

– بلى... ولكنها لا تليق بمثلك.

نظر وائل لعليّ بقوة، ثم رمى في وجهه بعضاً من الأوراق التي تناثرت على سريره، وقال بغضب:

– ماذا تعرف عن الدنيا وعن الحقيقة حين تنظر إليَّ هكذا؟ أنظر إلى هذه الأوراق.. كلمات جميلة ومؤثرة.. أعلم هذا، ولكنْ مَنْ يقاسي الموت إن رفعت تلك الكلمات بكل ذلك الغضب، في شارع يعج بالجنود الإِسرائيليين؟ أهو أنت؟ أم تلك الكلمات العنيدة؟ أم ذلك الذي كتبها وهو يرشف القهوة في مكتبه الفاخر؟.

– هراء... كل ما تقول هراء!!

– أنت – دائماً – تصرّ على تكون الهدف في اللعبة المميتة.. لكنني أريد الحياة.

– حياتك لا تعني غير الموت.

– ربما... لكني أريدها كما هي، دون حجارة أو خوف.

– ما الذي غيرك هكذا؟! ما الذي جعلك ظلاً لرجل يرتعش؟!

– كنت غبياً مثلك!!

– ظننت أننا نُغيّر الأشياء، فإذا بالأشياء تُغيرنا!!

– مات الكثير، تعذب الكثير.. ماذا بعد؟ ما الفائدة؟!

– الحرب أطول من حياتنا، فلماذا نفكر في الحياة، وأصوات الموت تلازمنا؟!

- ولماذا لا ننهي الحرب، فنبقي على حياتنا!!

- وتقول بأنني لا أفهم الحياة!!

- الحرب والحياة لا يجتمعان.

- كيف؟! وكلّ منهما سبب في وجود الآخر.

- دائماً تأتي بلكلمات الغريبة!!

- أنت غريب منها!

- اتركني وحدي..

- لا تتعجل الوحدة.. ستحياها طويلاً، وقد تملّها، كما مللت الحياة بيننا.

- لا تَخْشَ عليَّ... المال وحدة يخلق الأصدقاء.

- تهرب من حرب أنت القويُّ فيها، لتدخل حرباً لا تعرف على أيّ أرض تُقام!!

نظر وائل في وجه أخيه طويلاً، ثم تحسس شعره الأشعث بخوف تُحسسّه في عينيه المرتجفتين.. ولاتفهمني يا عليّ... ليتك تحبني.

ابتعد عليّ بسرعة، وأغلق الباب خلفه قبل أن تفر من عينيه المحمرتين دمعة يندم عليها بقية عمره.

أول الطريق

الساعة تجاوزت الواحدة.. حمل حقيبته المتواضعة، وخرج إلى ساحة الدار.. نظر حوله بحزن.. كان كل شيء صامتاً. قاتلاً... كسفره.. حتى (حياة) كانت تقف منكسرة، مهزومة.. ليته لم ينظر إليها ودموعها تسقط عند قدميها، لتخلق ضجيجاً من الصرخات الرافضة ذلّ الرحيل...

توقف قليلا، ثم قال وهو ينظر إلى قدميه؟

- هل أخرج من بيتنا كالمطرود؟!

أدارت حياة وجهها عنه، وقالت بصوت مشروخ:

- أنت من يطردنا.

صمدت لحظة لم تنظر فيها إليه، ثم ارتمت على صدره المرتعش، وقالت والبكاء يملأ كل ما حولها:

- ابق معنا يا وائل... أرجوك.. كل الذين يذهبون لا يرجعون.

- والذين يلقون الحجارة لا يعودون.

انتفضت من بين يديه كالعصفور، وابتعدت بصمت، ثم نظرت إليه بيأس، وقالت مبتعدة:

- لكنهم يبقون.

- ألن تقولي وداعاً؟!

-أيقال للميت وداعاً؟

- ميت؟!

- اذهب يا وائل... اذهب ولا تعد... ولكنْ تذكر بأننا نحن الذين لا نريدك.

أذهلته تلك الكلمات، لقد توقع أن يسمع مثل هذه العبارات الساخطة، فلماذا تصعقه كلما سمعها؟! ولماذا يداهمه البكاء في كلّ مرة يصرخ فيها طالباً الحياة.

رفع يده بالتحية، وهمّ بالخروج، لولا صوت عليّ الذي كسر الصمت، وهو يضع في يد وائل (قرآناً) صغيراً ويقبله بحزن.

- ابق هذا معك، فلربما أرجعك.

- أما زلت تواظب على الصلاة في المسجد؟

- الأسماك لا تترك البحر.

- كبرت يا عليّ.. ربما كبرتم كلكم!!

تجاوز البوابة الخارجية، والصمت يلقي بخيوطه على وجوههم، فلحق به عليّ.. وقال وهو يغلق البوابة:

- وائل.. قل لا... مرة واحدة.. لا.. لا..

ظل وائل يتابع سيرة..

أكمل علي بإصرار:

– للتمرد شكل واحد، يكفي أن تقول (لا) حتى تكون متمرداً، لكنَّ الخيانة مخلوق مرن تشكله كيفما تشاء.. يولد فيك ويقتلك.

صرخ وائل بغضب:

– لست عميلاً لإسرائيل حتى تتكلم معي هكذا!!

– وما الفرق، ما دمت في الحالتين تُباع، وبأرخص مما يظنون؟!

أغلق البوابة، ودخل غرفته الصغيرة، يبكي المسافر الذي لن يعود.. ثم أخذ الخبز من أمه الصامتة، وخرج للشبان المشعلين نيران الانتفاضة الفلسطينية.

الدائرة

كانت الدنيا قد أطبقت ذراعيها على جسد وائل، ليسير بجسده المهزوم بكلماتهم... هو يحبهم، لكنه يرى الدنيا بغير عيونهم وردد: ويل لذلك الوهم الذي يسير بهم إلى الجحيم!!.

توقف قليلاً، ألقى بحقيبته على الأرض وارتمى مهشماً بجنونهم!!

تطلع إلى السماء طويلاً.. لا تزال زرقاء كما عهدها.. أشياء كثيرة لا تتغير، لكن عيوننا تلونها وتظهرها بصورة جديدة.. السماء لا زالت زرقاء، البارحة فقط غسلت وجهها من هموم الغيم ببقايا المطر تمتم:

(أنا كالسماء يا أمي، أريد أن أغتسل من أحلامكم المستحيلة، أريد أن أكون أنا،، فقط أنا.. عليك أن تفهمي هذا الزمن، عليك أن تفهميني، لم يعد هذا الوطن لنا، لم يعد يعترف بجراحنا آن لك أن تعلمي بأن الأرض لمن يدوسها لا لمن يُقبلها).

نظر حوله مستفسراً عن سرّ ذلك الصمت المريب... ثم بصق على الأرض بقرف: (قد تكون مصيباً يا عليّ، قد أكون

خائناً كما تقولون، ولكنّ ما فائدة الصواب في زمن تعود الخطأ، ما فائدة الكتب لمن لا يقرأها؟).

كان عليك - أنت أيضاً - أن تغني لحناً تُقدسه الدنيا، يقتل فيك نغمات الوطن المشروخة... أعلم أنك ستسكت قليلاً، ثم ترهقني بالآيات والعظات، ما ذنبي إنْ كنت لا ترى سوى الصالحين؟! إنْ كنت تؤمن بالمعجزات وبالصبر!! بالحق الذي يعيده حجر مخنوق!!

اسكت يا عليّ، اسكت. دعني أتكم ولو لمرة واحدة، دون أن تنظر إليّ... قد أعود يوماً، وقد ترى الدنيا في عيوني، لتجد بقاءك جريمة اقترفتها أقلام الشعراء والقصاصين.. لا تقل إن إيمانك خير من أسلحة عدوك، لا تقل إن تلك الكلمات أقوى من جنون رصاصهم، لا تقل إنك الأقوى ورأسك تحت نعالهم... كان عليَّ أن أذهب بعيداً عن الموت.. ولدت لأحيا، فلماذا تصرّون على قتلي بضعفكم؟! احمول وحدكم الحجارة والخبز، ودعوني أحمل حلمي ووطني الذي سأخلقه بنفسي).

اغرورقت عيناه بالدموع، وقال كطفل يبحث عن عيون أمه:

- أرأيت يا عليّ.. قد أكون مصيباً، فلماذا لا أسمع منكم كلمة وداع؟!

القرد والعنب

لا زال يذكر وجه سالم الفتوح وهو يصافحه بحرارة مفتعلة، وعلى وجهه بسمة فاترة:

- عرفت أنك ستأتي ياوائل.

- أتيت لأقول لك (انس الموضوع).

- بعد كل الذي قلته لك!!

- لن أترك وطني.

- دعك من هذه الكلمات، وقل لي كم تملك من الجيوب من الفارغة ؟

- الكثير... والكثير من الرجولة.

- الرجولة؟! أتراك تطعم أسرتك الجائعة بتلك الكلمات؟ أم تعيد الحياة لأبيك الذي مات حزناً على أخيك السجين؟

- الرجولة شيء لن تفهمه أنت.

- أستطيع أن أجعلك تدفع ثمن ما تقول، ولكن أفضل أن نبقى صديقين.

- لماذا تبحث عمن هم على شاكلتك؟!

- لأن السيد إدوارد أرادك أنت.

- قل له إننا لم نعرض للبيع بعد.

- لا أدري أي نوع من الغباء يغزو جماجمكم!!

- غباء لا يفهمه عميل إسرائيلي مثلك.

- لو عرف خصمك بضعفك ما تكبد جهد قتالك.

- أنت عنيد ياوائل. ولكنك ستسافر.

كل الأشياء تتغير، حتى كلماتنا، دموعنا، ووجوهنا.. كان لا بدّ أن يرضخ الأمل في قيود اليأس، ولو مرة واحدة، كم مرة بدلت الأرض وجهها.. ولم يقل أيّ منا بأنها خائنة!!

لماذا هو وحده الذي تشير إليه كل الأصابع المبتورة بالخيانة؟!

انتظر وائل طويلاً أمام بيت سالم الفتوح، قبل أن يفتح الباب، إجراءات أمنية عديدة تمت قبل أن يسمح له بالدخول، فنيران الثورة الفلسطينية مازالت تبحث في أشجار الوطن عن أغصان جافة.

أسرع سالم الفتوح نحو وائل بوجهه المقيت، وبكرشه المنتفخ، راسماً على وجهه ابتسامة غريبة، فقدت كثيراً من هدوئها.. لقد أصبح مضطرباً، مذعوراً كفأر يدافع عن حياته بالهرب:

- كيف الأخبار عندكم؟

- كالتي عندكم... هل السائق هنا؟

- استرح قليلاً، لا بدّ أن الطريق كانت متعبة.

- كانت فرصة للاحتفاظ بهذا الوطن في ذاكرتي.

- عندما تحملك الطائرة نحو الوطن الجديد ستنسى كل شيء... أعدك.

- الأشياء هنا نسيتني.. حتى شجيرات الجبل أنكرتني كالوباء..

- ها قد رجعت للهذيان... ألم أقل لك، كانت الرحلة صعبة.

صاح وائل بغضب:

- لم تكن رحلة.

نظر إليه سالم الفتوح بغيظ...

(لم يعد وائل صعباً كما كان، لكنه - أيضاً - لم يصبح كما يجب.

أنت كلاعب (السيرك) الذي يتأرجح على الحبل ياوائل.. عليك أن تبلغ النهاية عليك أن لا تسقط... لن أغفر لنفسي سقوطك في منتصف الطريق.. صدقني يا وائل لا أملك تكاليف سقوطك) تفحص نظرات وائل بخوف، وكأنه يراه لأول مرة:

(حيرتك تخيفني، لكنها تعجبني.. كلما كان ترويض الجواد صعباً كانت حماسة المتفرجين لمروضه أشد وقعاً من حوافره الغاضبة.

استمر يا وائل... استمر.. اتجه كالبرق نحو الطائرة بأحلامك، ولا تنظر إلى الوراء.. عليَّ أن أكسب هذه الجولة.. أن أكسبها... أو أموت).

تحسست عينا وائل الجدران المحيطة به، كانت خشنة، مخيفة كالقبر.

إنه يكره (سالم الفتوح).. لقد كرهه عندما رآه أول مرة، وها هو يكرهه الآن أكثر من قبل، ولكنْ كيف؟! كيف يسير معه نحو نقطة واحدة، وكلاهما مختلفان، يكره كل منهما الآخر؟!.

(أعرف أنك تكرهني كما أعرف أني أكرهك.. أعرف أنك أضعف من أن تبصق في وجهي كما فعلت بك عندما قابلتك لأول مرة في غرفة التوقيف.. كنتُ فرحاً بالخطوط الدموية في وجهي وعلى جسدي، كنتَ فرحا... وكنتُ سجيناً!!).

نظر إلى السقف... عاوده ذلك الخوف الحائر..

(أنا لست خائناً كما تظن، لست كما تظنون كلكم... ألا يسافر القطار بمئات المسافرين نحو محطة واحدة، يتفرقون بعدها وفي أيديهم التذاكر نفسها، وعلى شفاههم الابتسامة المتعبة ذاتها دون أن تجد فيهم مسافراً يشبه الآخر؟).

ألقى بعينيه على الأرض، حبسهما في حذائه.. كل هذه الجدران مرايا يكره أن ينظر إليها، حتى السقف.. إنه عاهرة تطلب منه التوبة.

قال بحزن:

- كانت مجردة قفزة تعادل الملايين من الخطوات.

ابتسمت عينا سالم الفتوح بسخرية.

(الحزن أقل خطورة من الغضب... احزن يا وائل، وابك إنْ شئت.. الدموع تغسل الذنوب وتُذيب الإرادة.. الحزن يحتويك كخيوط العنكبوت، لكنّ عيونك المشتعلة هي ما يخيفني... اطفئها بدموعك، اقتلها بحزنك.. هيا ابك بلا توقف.

المحارب القويّ يفكر في النصر، في النصر وحده، فكر أنت بأحلام المستقبل الذي يليه، فكر في الوطن الجديد.. إياك أن تغضب ثانية أو تصرخ بجنون.. حزنك وحده الذي يُسافر بي بعيداً عن حدود الفشل).

قرب علبه السجائر من وائل الذي أطال الصمت، وقال مفتعلاً الحزن:

- كل المسافرين يحزنون.

أبعد وائل علبة السجائر عنه، وقال بيأس:

-لكنهم لا يموتون في عيون مودعيهم.

- ألا تكفيك ابتسامة تنتظرك هناك؟!

- لماذا أردتني أن آتي إلى هنا؟! كان بإمكاني السفر دون اللجوء إليك.

- وعدت إدوارد بإرسالك إليه، إنه يحبك، وابنته تحبك... المال والجمال يرتميان تحت قدميك... ولا تبالي!!

- حتى في هذه الظروف أنت لا تنسى ولاءك لهم؟!

- اسمع يا وائل.. يكفيك تهكماً وأنصت إلي.. لست بأحسن حالاً مني، والأفضل لنا أن نعتاد على احترام بعضنا.

- لا بدّ أنه كان سخياً معك.

- وأظنه يكون كذلك معك.

- ماذا يريد ذلك المليونير من رجل معدوم مثلي؟!

- أنت لا تعرف قيمتك أيها الغبي... أنت العجينة التي سيشكل منها الوجه الرائع الذي يخصه.

- وجين؟!

- الوجه الآخر.. الذي يخصك أنت.

مرت لحظات ثقيلة قبل أن يخرجا لملاقاة عوض (السائق الذي سينقله إلى المطار).. أغلق وائل باب السيارة، بعدما تأكد أن أنفاسه حُبست في مقعده المريح... أمر السائق بالانطلاق، دون أن ينطق بكلمة واحدة، أو حتى أن يشكر (سالم الفتوح)، ولو بابتسامة وداع.

على هامش الحزن

انطلقت السيارة تأكل بقايا العشب الذي أعطته دماء الثوار ألوان الربيع وساد الدنيا جوٌّ من الغربة. قطعه وائل وهو ينظر إلى الطريق:

- أتمنى أن تكون ممن يؤثرون السلامة.

ضحك عوض، وخفف من سرعة سيارته:

- أنا رجل مؤمن يا سيد وائل.

- وتعرف اسمي!!

- أنا أعرف كل الذين يعملون لدى سالم الفتوح.

صاح وائل بغضب، ورفع يده في وجه عوض بحركة لا شعورية:

- أنا لا أعمل مع ذلك القذر.

- فلماذا أنت هنا إذن؟!

- لأسافر.. بعيداً عن كل شيء هنا.. حتى عن نفسي.

- في كل خطوة تبتعد فيها عن القرية، تجدها أكثر التصاقاً بك!!

سكت وائل طويلاً قبل أن يدير دفة الحديث ثانية، فالطريق طويلة، والصمت في هذا الوقت يسوق الحنين والخوف البعيد:

- ما رأيك فيما يحدث؟

- وما الذي يحدث؟!

- الانتفاضة!!

- (كلام فاضي).

- أنا أيضاً أرى ذلك، ولكنهم لا يفهمونني.

- هم لا يريدون سوى الموت، فانج بحياتك وابتعد عن سخافاتهم.

- ألم تفكر يوماً في إلقاء حجر على جندي إسرائيلي؟!

- أعوذ باللّه... أنا رجل مؤمن؟!

- ويلك!! كيف تكون بهذا مؤمناً؟!

- أنا أؤمن بأن منّ حقي أن أحيا بعيداً عن رصاص إسرائيل.

- بعيداً عنه.. لا مَعَهُ.

أشعل عوض سيجارته بطريقة عصبية، ثم صاح بغضب:

- اسكت وإلا أنزلتك من السيارة... لا تنقصني مواعظك أيها الأحمق.

نظر وائل في وجهه المتجهم، وعاد بذاكرته للبيت والأصدقاء.

هذه ليست أول مرة يقال له فيها أحمق!! أجل مازال يذكر أحمد (رفيق الكفاح..) وهو يصرخ كالمجنون..

- أحمق.. أحمق..

ولكن كيف؟! كيف يراه أحمد أحمقَ، ويراه عوض أحمقَ؟!

وكلٌّ منهما نقيض الآخر.. أتراه يقف بينهما كالمسمار الصدئ، لا يدري في أيّ اتجاه يغوص جسده؟!

لم يتخلَّ عنه أحمد يوماً، أتراه يتخلى عنه الآن ويبيعه؟ تُرى.. مَنْ الذي باع الآخر؟!

كم هي قاسية تلك الأيام!!

فن الزمن الذي يرسم وجه أحمد الذي يرسم وجه أحمد الخريفي في عيني عوض، ليجبر وائلاً على الصمت والتحليق بعيداً في سماء الذكريات الحزينة!!

لا زال أحمد يصرخ كالمجنون في وجه وائل، مازال يصرّ على أن تبقى الإرادة سلاح الوطن الباحث عن الطفولة والحلم..

ها هو يدور في أرجاء الغرفة كعادته، ها هو يلقي الوسادة على وائل.

إنه يراه.. أجل يراه.. في عيني عوض الغبي،

صوت حائر يخرج من عيني وائل، دمعة صغيرة تأرجحت فيهما، لكنها قاومت ذلّ الحزن.

صاح الصوت بكل ما يملك من خوف:

- لست خائنا... لست أحمقَ... لست..

صاح أحمد من عيني عوض البليدتين في مرآة السيارة..

- لست حمقَ... لكنك تبحث عن وطن تخلقه أنت، فلا يعيش فيه سواك!!

– حـاول أن تفـهـمنـي.. كل الأشـيـاء تصـرخ في وجـهي ولا تسمعني!!

– أنت أول من أغلق أذنيـه، أول مـن فـقـأ عـينيـه قـبل أن يرى الحقيقة في الشواع، في الأيدي الحاقدة، في العيون المسرعة دون خوف أو تردد.. في سرير طفل فقد اليد التي تهزّ له السرير.

– لا فائدة من الحوار بيننا.

– عُـدْ يا وائل... أمك لا زالت تبكي في ســاحــة الدار.. لا زالت ترفع يديها المتعبتين للسماء، وتدعو كعادتها منذ عرفت بأمر سفرك.

– هيهات أن يسير الزمن إلى الوراء..

– نستطيع أن نعيد تاريخنا إن أردنا ذلك.

– كــيف وقــد تعــودنا أن يصنعنا تاريخنا؟! ألم تكن تلك كلماتكم؟! (عُدْ يا صلاح الدين، أين أنت يا أميـر المؤمنين) ألم يكن ذلك الأفيون الذي تغزون به جماجم الصغار؟!

هؤلاء الصـغـار الذين تتـحـدث عنهم مـاتت في عـيـونهم الطفولة، واشتعل ضريحها ناراً تحرق الكلمات الخاملة..

– ما الفائدة؟! إن كان الصغار سيكبرون، وسيكتشفون بأن عليـهم أن يرحلوا مـثلي، ليـبحـثـوا عن وطن آخـر، يعـودون فـيه صغاراً من جديد!!

- كي تلقي حجراً على جندي إسرائيلي مثقل بالسلاح، تحتاج إلى مبرر واحد للموت، لكنك إن أردت أن تكون خائناً، فلديك مئات المبررات!

نظر وائل إلى قدميه بحيرة (إنه المكان الوحيد الذي ينظر إليه دون أن يجد من يسحقه!!).

صاحت عيناه ثانية بحروف مشتتة، حاول جاهداً جمعها:

- قال عوض بأن من حقه أن يحيا بعيداً عن رصاص الجنود.

- وأنت؟!

- أنا كعوض.

- صاح وائل مستدركاً:

- لا.. لست كعوض، صدقني يا أحمد، لست..

وسكت فجأة حينما أوقف عوض السيارة، وصاح بغيظ أشعل عينيه غضباً:

قال سالم إنك نوعية خاصة، تحتاج كثيراً من الصبر، لكنه لم يقل إنك مجنون!!

نظر إليه وائل برهة، ثم انفجر ضاحكاً.

(لم يكن أحمد هنا إذن، لم تكن تلك سوى ع٧يني عوض الشرهتين!!).

وفرّت تلك الدمعة المتأرجحة من عينيه، عندما فقدت معنى المقاومة.

- تحدّث إليّ يا عوض، لا تتركني فريسة للصمت.

نظر إليه عوض وهو يحرك المقود بابتسامة عريضة، ثم قال مستحسناً الفكرة:

- هذا يتوقف على نوع الأحاديث التي ستختارها.

- نحن لا نختار أحاديثنا... كثيراً ما نقول أشياء لم نَعِ قولها، ولم نفكر للحظة بأنها يمكن أن تسرق كلماتنا!!

- عدت للهراء من جديد!!

- عن ماذا؟!

- عنك.

- وتصغي؟

- دع هذا الطريق.

أشعل عوض سيجارة بيده اليمنى، بينما ظلَّ ممسكاً المقود باليد الأخرى، وقال وهو يقدمها لوائل:

- هذه تجعلك تصغي.

تناولها وائل بلا مبالاة، وبدأ ينفث دخانها بملل، بينما تابع عوض كلامه بتلك الابتسامة العريضة:

هذه أول مرة يطلب مني فيها أن أتحدث عن نفسي بصور ودية!!

- تعني إسرائيل؟

- كنت دائما أتحدث عن نفسي في مكاتب التحقيق، وأسلحة

الجنود ترسم خطوطها على جسدي وفي عيوني.. لم أحتمل.

أكمل وائل بسخرية، وعيونه تكاد أن تمزق قدميه.

- فصرت عميلاً، أليس كذلك؟! قصة محفوظة، ومبررات لا تصلح للخيانة

صاح عوض بغيظ، يريد أن ينتقم لنفسه:

- وأنت.. كيف تبرر هروبك الآن؟!

- أنا لست هارباً؟! أو ربما كنت هارباً، لكن هذا لا يُفسر على أنه خيانة.

- أنت الذي تخلق مبررات لا تصلح لما أنت فيه.

- أرأيت؟! أردنا أن نقتل الصمت بكلماتنا، فإذا بنا ننتهي باتهام كلّ منا للآخر!!

- لا يهم، ما دام كلٌّ منا يؤمن بما يفعل!! أم أننا نؤمن بالنتيجة فقط؟!

وساد الصمت من جديد.

غضب وحزن

(غـريبــة تلك الطـريق... لأول مـرة أشـعــر بأنني أســيـر في طريق لا تعرفني.. طريق تتكرني مع أنني أشعر بأنها تحاول أن تلتصق بكل شيء أحسه!!

كي تتمسك هذة السيجارة بالحياة!! إنها أول سيجارة أراها ترفض أن تموت سـريعاً... لماذا هذه المقـاومـة؟! سـوف نموت.. فلماذا تقـاوم؟! آه.. إنه الملل.. لا يخشع الوقت مهابة إلا للملل.. تُرى، أيهما أقوى مِنِّ الآخر؟!.. الملل أم الوقت؟!).

ضغط عوض على (البريك) فجأة، فاهتز كيان وائل بغضب:

- مــا بك يا عــوض؟!.. أتـريد قــتلي؟! أم أنـك تريدها لنا معا؟!.. ليس هناك ما يوجب هذا المزاح الثقيل.

ابتسم عوض ابتسامة من لا يريد الكلام:

- وائل.. لمـاذا لا تعــود إلى أمك وإخــوتك؟! مــازال الطـريق بعيداً.. صدقني يمكنك الرجوع... أنت ما زلت نقياً.. لا تتلوث بهم.. أعلم أنـك سـوف تضـحك.. أنـا نفـسـي لا أفـهـم لماذا لا أريدك جباناً!!

- أنت تقـــول لي هذا!!.. من أين أتتك الحكمـــة؟! أم أن الخوف أصبح يلازمك لدرجة إلقاء النصائح.. إذا كنت ترى عملي جبناً، فهذا لأنك تخشى أن تكون الجبان الوحيد.. نعم أنت تريدني مثلك.. تريد جباناً آخر!!

- بدأت أصدق أنك أحمق... صدقني، إنها لعبة، بدأنا قبلك بكثير.. لا تصدق أن الجبان يخاف الموت وحيداً، إنه بهذا يقدّس في قلبه صنم الجبن في لحظة ضعفٍ لم يفكر بها.. نعم أنا جبان.. أنا جبان... أنا جبان هل استرحت؟.. أما زلت تشعر باختلافك عني؟ أنا لا أريدك مثلي.. نحن فئة قليلة، ونملك القوة، لكننا نخاف.. لا من حجارتهم.. بل من أنفسنا.. من جذورنا.. إننا نحبهم لكننا نقنع أنفسنا بأنهم يكرهوننا، ونصنع آلاف المبررات لها.. أولها:

أننا لا نملك خيار آخر.. مع أننا نملك كل شيء.. نملك كلمة (لا) .. إنه الجبن يا وائل.. ليس لضعفنا بل للحظة ضعف لم نعرف كيف نسحقها فنقوم بتعظيمها كي تنفجر بنا وتمزقنا..

- لكنها تمزقهم أيضاً!!

- أبدا... إنهم يشمّوننا من بعيد... يحسّون بوقع خطوات قلوبنا وهي ترتجف بحثاً عن لحظة ضعف لهم.. إننا مكشوفون ياوائل.. لا أحد يصدقنا.. لا أحد يحترمنا... كلهم

يكرهوننا... ونحن نبصق على أنفسنا!!

- فلماذا يبقونكم في العمل لحسابهم.. وأنتم لا تفعلون شيئاً؟!.. لا تخف... لست قاذفة أحجار هنا.. ولست بباقٍ كي تقوم بهذا الدفاع الرائع عن (لحظة ضعفك).. قل هذا لضحاياك.. لا تقله لي.. أنا لا أعطي صكوك غفران لأحد.. ما أبشع الخوف مرتين.. مرة ممن قتلك.. ومرة ممن سيقتلك.

- لماذا لا تعود يا وائل.. صدقني.. أنت أول شخص أقول له هذا.. ليس حباً بك.. ربما لأنك تملك جزءاً آخر من لحظة ضعفي.. لا تدعها تكبر يا وائل.. ستقضي على كل شيء جميل في حياتك.. أنت ما زلت تملك كلمة (لا).. قلها ستملك نفسك حتى لو لم تشعر بوجودك.. لديك القوة.. فقلها.. دعني أراك تفعلها..

وأنت؟!!

- أنا لست لهم.. ولست لأعدائهم.. أنا نفسي فقط!!

- لماذا لا تقولها؟

إذا قلتها فلن يصدقني أحد.. حتى لساني!!

- أرأيت.. مازلت تبحث عن مبررات لـ(ضعفك).. لا.. لن أصبح ضعيفاً مثلك، شكراً حتى هنا.. لن أطيق مواصلة الطريق معك.. يبدو أن الحجارة أحيت فيك شيئاً نسيته منذ

بعيد.. أحيت خوفك الذي لم يمت.. وعندما أحسست بزئيره في داخلك.. ظننت أنك بقطة لحم صغيرة ستخرسه.. لا.. لن أكون قطعة اللحم التي تقدم على مائدة اعتذار لهم.. هذا فراق بيني وبينك.. لم يبق في الطريق الشيء الكثير.. اذهب مع السلامة.. سأكمل الطريق مشياً على الأقدام.

دفع وائل باب السيارة بعنف شديد، وخرج منها، يحيط بعينية سوار من السخرية والغضب.

نظر عوض في وجه وائل وهو يناوله حقيبته.. وقال له بهدوء أقرب للحزن:

- وائل.. أنت الأحمق الوحيد الذي يشبهني!!

مرة ثانية

(لا بدّ أن هناك علاقة حميمة بين العقل والقدمين... وإلا فما سرُّ التراخي وهذا التوتر الذي أحسه في قدميّ.. هل أستريح قليلاً.. لا.. لم يبق من الوقت إلا الرفات.. لا.. ليس العقل الذي يسيطر على القدمين.. إنه القلب.. نعم، هو القلب.. فالذي كان يضايقني منذ ساعات طويلة هو قلبي... لا هذا العقل الذي أنهكته بأحلام السفر والدنيا الجديدة..).

سار في الطرقات يبحث عن عينين يُلقي فيهما حزنه وغضبه.. كان صوت اصطدام قدميه المتعبتين بالأرض يخلف جواً قاتلاً من الخوف والتوتر.. لماذا هذا الهدوء؟!

أين الأطفال؟!.. أين الحجارة؟!.. ثم ارتمى على الأرض ثانية، وألقي برأسه المهزوم على حجر كبيرة، ظلّ يتحسسه بين لحظة وأخرى.. ثم ابتسم ضاحكاً وهو يفرك عينيه المغبرتين.. (ما أكثر الحجارة هنا!!).

وقف وائل فجأة عندما أحس بدورية للجيش الإسرائيلي تقترب منه، نزل جندي من السيارة، وأشار إليه بساحه:

- أنت.. ماذا تفعل هنا؟!!

- أمشي..

- فقط؟!

- وماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك.. وحدي؟!

- أنتم - دائماً - تعملون وحدكم.

ابتلع الإهانة كالأفعى، ونظر إلى عيونهم المشتعله، وقال موضحاً الأمر:

- أنا متجه نحو (تكسيات) المطار.

نظر الجندي إلى رفاقه بحذر، وتابع وائل كلامه مطمئناً:

- أحمل تذكرة للسفر.

قرّب الجندي سلاحه من صدر وائل، وقال بغيظ:

- ألن تُلقي الحجارة مثلهم؟

- هذه ليست مهنتي.

- أنتم تتعلمون بسرعة.

- ليس دائماً.

- ماذا تعني.

- لا أريد أن أتأخر... عليَّ أن أصل إلى المطار قبل التاسعة.

تأكد الجندي من الأوراق التي يحملها وائل، وخصوصاً تلك الورقة التي أعطاه إياها سالم الفتوح، ثم قال بلهجة آمرة:

- انصرف من هنا!!

تابع سيره كالسلحفاة، بينما تابعة الجنود الإسرائيليون بعيونهم..

(كانت مقاييس الخطأ والصواب عنده، هي ردود فعل الإسرائيليين.. كيف يمكن أن يكون مصيباً وهم يرونه كذلك أيضاً... أيمكن أن تنقلب الموازين في لحظ نصرُ فيها على أن نتحدى أنفاسنا ونرحب بالموت؟!..)

تابع سيره بنفس الحيرة، وبنفس الحزن... (لابدّ أن الحزن أسهل الأشياء التي يمكن التعود عليها.. لحظات من التحدي المميت، جعلت من حظر التجوال إضراباً.. هم في الحالتين يتعذبون.. ينامون وفي عيونهم دموع جافة.. لكنهم الآن يفعلون ما يريدون..!!).

لمح سيارة من بعيد.. أوقفها كالمجنون، وقال وهو يدخل رأسه من نافذة السيارة:

- أيمكنك أن توصلني إلى المطار؟

نظر السائق إليه بضيق، وقال وهو يستعد للانطلاق:

- لا أفكر في الذهاب إلى هناك.

- سأدفع لك كل ما تريد.

وبحركة سريعة فُتحَ الباب، وجلس وائل على مقعد مريح.. للمرة الثانية.

على سلم الطائرة

بدا قلقاً، وربما خائفاً: وهو يصعد سلم الطائرة بصمت.. أفكار كثيرة متضاربة، تتحارب في رأسه، وتخلف فيه صدعاً رهيباً، يتدفق دموعاً ساخنة في العينين.. وبدهشة طفل يكتشف أن الناس لا يشبهون أمه، نظر حوله، تسمَّر في مكانه لحظة وودع فلسطين بحزن يرتعش.

اجلسته المضيفه في مقعده، وهي تبتسم بإشفاق، بينما تلتصق عيناه في وجهها كملاذ أخير.

على يمينه امرأة عجوز، لم يبق منها الدهر سوى ابتسامة تعبة، ترسمها بصمت ولتختفي وسط الخطوط العميقة، والتجاعيد التي تحب الظهور بقدر كرهنا لها!!

أحست العجوز باضطرابه، فسألته بالإنجليزية:

- هذه أول مرة؟!

- عفواً هل تتحدثين معي؟!

- هذه أول مرة تسافر بالطائرة؟

- هل أبدو متوتراً إلى هذا الحد؟

- تبدو خائفاً!

شدّته تلك الكلمات إلى مقعده بعنف، لكنه أجاب بغيظ:

- نحن لا نخاف من الموت!!

فسألته بوداعة زادت من تحفظه:

- من أنتم؟!

حدّق في وجهها طويلاً، قبل أن يجيبها بثقة:

- العرب!

فابتسمت وهي تنظر إليه بإشفاق، ثم سألته باستغراب:

- أنا لم أذكر الموت!!

- ولكنك اتهمتني بالخوف!

- لو لم تكن خائفاً ما فكرت بالموت.

- وامتدّ الصمت ثقيلاً، محيراً...

لحظة خائفة

عند الإقـلاع.. أحسّ وائل أن الأرض تُصـرُ على الاحـتـفـاظ بالطـائرة، وإلا فـمـا مـعنى الاحـتكاك الذي حـاول الجـمـيع أن يقاومه!

وانتصـرت الطائرة، هربت بجسـدها الصلب بعيـداً وحلقت فوق الطيور المسافرة، تحمل في جوفها الخوف والرجاء.

التفت إلى العجـوز، رغبة عارمة بالهرب من الذات اجتاحته، فقال لها وهو يخرج علبة السجائر:

- سأدخن سيجارة، أرجو ألا يضايقك ذلك.

فردت على الفور، وعلى وجهها نفس الابتسـامة التي تُجبره على الصراخ:

- يجب عليك ألا تفعل!!

فقال وقد احمرّت عيناه من شدة الغضب، وبدت الكلمات تفرٌّ من بين أسنانه المطبقة عليها بغيظ.

- عليك أن تتذكري سيدتي! أن حريتك تنتهي عندما تبدأ حريتي!

فقال وقد غطت الدهشة وجهها

- ولكنك في قسم (غير المدخنين).

- ماذا؟!

- هذا يعني أنَّ كل المسافرين هنا، لا يرغبون برؤيتك تُدخن.

- هل سأمضي كلّ هذا الوقت بدون؟!

- أنت الذي اخترت ذلك.

- أنا؟!

- عندما قطعت التذكرة.

فلمعت في عينيه صورة (سالم الفتوح) وهو يناوله الأوراق، ومن بينها تذكرة السفر، الملامح الباردة، والكرش المتهدل، كلها كانت تغرس أظافرها القاسية في وجهه! ارتعشت شفتاه بالكلمات، وهو يحاول أن يبتلعها، فلا يقدر:

(أيها الوغد أنت لا تنسى أن تؤذين، حتى في رحيلي!).

التفت إليه العجوز باهتمام:

- هل تتحدث معي؟!

فأجابها بضيق :

- لا.

- تشعر بالوحدة؟!

نظر إليها بحدة، حدّق في وجهها، توقف لحظة أمام العينين

الغائرتين، الزرقة فيهما أدهشته، وأعادته إلى البحر، حيث الشواطئ المسبية، فابتعد بوجهه بطريقة عصبية.

- عادة الذين يتحدثون إلى أنفسهم، أناس يشعرون بالوحدة!!

- فقال لها دون أن يلتفت إليها:

- أنت تتدخلين فيما لا يعنيك سيدتي!!

فقالت ضاحكة:

- هذة ميزة تعلمتها من العرب.

- التفت إليها بضيق، ثم قال بتحدٍّ:

- ماذا تعرفين أنت عن العرب؟!

مطت شفتيها بتأمل، ثم أومأت برأسها ، تعبيراً عن اعجابها بسؤاله، وقالت مبتسمة:

- القليل! ولكني أعرف أكثر منك.

- هذا جنون.

- فقالت بالعربية:

- ذلك لأنكم تعتقدون أنّ أهل مكة أدرى بشعابها.

أثارت الدهشة فيه شعوراً بالخوف، لكنه انفجر بالضحك، وهو يشير إليها مستغرباً:

- أنت تتحدثين العربية بطلاقة!

- ثم قال لنفسه، وهو يسحب من الهواء نفساً عميقاً:

(الحمد للّه! الحمد للّه أني لم أشتمها بالعربية، حقاً! على المرء أن يكون صبوراً قدر استطاعته).

لكنها تجاهلت شروده، وأكملت باهتمام:

- لم يعد العرب كما كانوا، صاروا فريسة للتناقض، لم تعد حضارتهم ترضيهم، رغم أن الخطأ فيهم، وليس في الحضارة، أنتم تفكرون بأنفسكم، لأنكم تفكرون طوال الوقت بنا. تريدون انتزاع عالمنا، لأن الاحتفاظ بعالمكم الحقيقي يتطلب الكثير من الجهد، وأنتم تحلمون بالحياة المجردة! هل عرفت أيها الشاب لماذا أظن أني أعرف أكثر منك عن أمتك!!.

سكتت قليلاً، ثم تابعت بجدية، وربما بقسوة:

- ببساطة، لأن أهل مكة لم يعودوا يحفلوا بشعابها، تركوه لنا، لندرسه!

ظل وائل صامتا، بحث عن كلمات ليقولها، لكنه لم يجد غير الصمت جواباً، فأكملت:

- إن مجرد التحدث عن حضارتهم يحقق الإثارة لأيّ باحث عن الحقيقة، عندما زرت مصر لأول مرة، احتواني الذهول وأنا أنظر للأهرامات، حتى ظننت الفراعنة رأس الحياة، لقد أجبروا الزمن على الاحتفاظ بآثارهم!

غطى وجهه بيده، محاولاً إيقافها، لكنها أكملت بنفس اللهجة:

- احتجت عشر سنين من البحث والعمل، لأكشف أن ما تركه المسلمون أعمق أثراً، وأقوى تأثيراً، أتعرف لماذا؟ لأن الفراعنة ينتزعون منك الدهشة والخوف، يُلوّنون وجهك بالإثارة، ولا يمنحونك غير الشعور بعظمتهم، بينما يدهشك المسلمون، بحضارتهم، ويمنحونك القدرة على الاستمرار من حيث توقفوا..

فقال وقد نفذ صبره:

- لا أرغب في سماع المزيد عن أمجاد أمتي!!

- أرجوك.. لا تغضب مني.. لقد تعودت أن أتكلم هكذا.. حتى مع تلاميذي..

- كان عليَّ أن أعرف أنك معلمة!!

أحسست أنه يعني إهانتها، فقالت بحدة:

- المسلمون لا يتصرفون هكذا!!

- أشعر بالضيق، ولا أريد سماع المزيد!!

- امتناعك عن التدخين هو السبب؟!

- ربما.

- دعنا نُضيع الوقت بالحديث، الرحلة طويلة... وأنت تذكرني بأُناس أحبهم!!

- علمتني هذه الحياة أن لا أحد يشبه الآخر.

- الإنسانية تجعل الناس متشابهين!

- هل تعتقدين حقاً (أننا كلنا بشر)؟!

- وربما سواسية كأسنان المشط..

التفت إليها بسرعة، رأى الصليب يتدلى على صدرها بقلادة جميلة فابتسم.

أحست بابتسامته فتشجعت على المضي بحديثها:

- أنا الدكتورة (هيلين جيرن) أُدرِّسُ علم اللغات الشرقية في جامعة بنسلفانيا، زرت العديد من البلدان العربية، كما أني مهتمة بشكل خاص بالحضارة الإسلامية... لقد عشت وزوجي ما يقارب الخمسة عشر عاماً في مصر والعراق، أنجبت فيها ابنتي الصغرى (نور).

- نور؟!

- أنجبتها في مصر، كان الليل يسدل آخر أستاره، وأنا ممدة على سريري ، يتصبب من وجهي العرق.. الولادة ألم لا ينتهي إلا ببكاء المولود!

تنهدت بحسرة، ثم أكملت بابتسامة حزينة:

- كانت هدى تقف عند رأسي، وتمسك بيدي.. على فكرة هدى امرأة عربية مسلمة لها نفس تخصصي، كانت تطلب مني

أن أضغط على يدها كلما يشتد الألم، وكنت أنظر إلى وجهها الطيب، لأقتبس منه بعض الهدوء، أنتم الرجال لا تعرفون الألم الحقيقي، ولذلك لا تملكون قلوباً رقيقة!

- هل عليَّ أن أكون امرأة لأكون رقيقاً؟!

ثم أكمل بصوت مسموع:

(غداً تطالبون الرجال بالإنجاب لنتساوى بالألم!).

لكنها أكملت غير آبهة بكلامه:

- عندما اشتدّ بي الألم، وظنّ الطبيب أني سأخرج للدنيا طفلي، كان صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، لن أنسى تلك الكلمات ما حييت، كنت أصرخ من الألم والخوف، بينما تطلب هدى مني أن أستمع للأذان، حتى يخف ألمي.

نظرت إليه، أحسست بالملل يزحفُ إلى وجهه فقالت بسرعة:

- هدى طلبت منى أن أسمها (نور)، لأن الصباح أشرق بمجيئها!!

فقال مبعداً وجهه عنها:

- كان الصباح سيشرق بها أو بدونها، فالحياة لا تجامل أحداً على حساب الزمن!!

- ربما! ولكني عندما سمعت عبد الله (زوج هدى) يقول في صلاته أن الله نور السماوات والأرض، أحسست أن طفلتي ستكون نوراً لقلبي!!

- لقد عشت معهم أجمل ما حمله لي العمر.

فقال كأنه يحدث نفسه:

- مصر ككل العواصم تغطي وجهها وتبكي بصمت، ولكنها بلا دموع!

نظر إلى العجوز، وقال كمن تذكر شيئاً:

- نور! إنه اسم جميل.

- نور أيضاً كانت تظنه كذلك، حتى التقت بذلك الأحمق...

تنهدت بضيق، ثم قالت وهي تشير إليه بعصبية:

- كانت نور مؤمنة بكل ما أقول ، وكانت تحب العرب، وتشعر أنهم جزءٌ من ثقافتها، رسمتهم في مخيلتها طويلاً، رجالاً طيبين، ونساءً جميلات.. حتى التقت بذلك العربي!

عضت شفتيها بغيظ وهي تقول:

- أحبت فيه الصورة التي سمتها لها، لكنها فوجئت بأنه مجرد رجل يبحث عن امرأة جميلة، لا زلت أذكر كيف دخلت البيت غاضبة. كسرت الأطباق، وقلبت المقاعد، ثم جلست على الأرض وقد هدّها الإعياء والبكاء، كانت تقول لي بأنه سافل، وليس رائعاً كالأوهام التي ملأت بها رأسها.. للحظة شعرت بأنها على حق، ولكني هربت من يأسها إلى الشوارع البسيطة بعمقها، والوجوه السمراء من وهج الشمس، تذكرت هدى وهي تعطيني

يدها، وتذكرت عبد الله وهو يهرب بعينيه مني حين يتحدث معي، رغم أن النوادي الليلية على تواضعها، كانت تتقيأ كل ليلة عشرات السكارى من العرب، صمتت قليلاً، ثم قالت بإعجاب:

- عندما تشتدّ العتمة يا عزيزي، عليك أن تبحث عن نجمة مهما كلفك الأمر، حتى لو اضطررت لتخيلها.

لأول مرة يبتسم بصدق، وهو ينظر إليها ويقول مؤكداً:

- أصابع يدك تختلف فيما بينها، فكيف يكون الحال مع الناس:

- لن تغفر لي نور أبداً، قالت لي وهي تغلق الباب في وجهي...

انفجر وائل بالضحك، وهو يتابعها تقلد صوت ابنتها، فأكملت بفرح حين رأت كلماتها تسعده:

- ليس هذا فقط، فقد طلبت مني أن اغير اسمها، واقترحت أن تسمي نفسها (نوران) لكنها فوجئت بي أخبرها أن (نوران) تعني بالعربية (نوراً مزدوجاً)!!

فاندلعت من عينيه الدموع، من شدة الضحك!!

المرأة ... المهزومة

تنهدت وهي تنظر إليه بطريقة غريبة، جعلته يتوقف عن الضحك، ويواجه نظراتها بالدهشة، لكنها أسرعت لتقول له بحسرة:

- أولادي الثلاثة تركوني، أكاد لا أراهم إلا لينثروا مشاكلهم في وجهي، لم يبق لديّ في هذه الدنيا سوى (نور).

اسندت جبينها إلى كفها، ثم أكملت وقد بدا التعب جلياً في ملامحها:

- نور لم تتركني لأنها عاشت طفولتها عند العرب..

ابتسامة ساخرة أطلت من عينيه وهو يراقبها، فقالت مدافعة عن نفسها:

- أكثر ما أدهشني في دينكم أيها العرب، تلك النظرة الحانية للمرأة، حين يتحدث عنها أُمّاً وزوجة، وابنة.. أتعرف ما الذي ينقص المرأة عندنا يا عزيزي؟

فأجابها بسخرية حادة:

- ينقصها القدرة على التحول إلى رجل!!

تجاهلته، غير مبالية بكلماته، ثم قالت بطريقة آلية:

- ينقصها أن تكون امرأة.

التفت إليها فجأة، ثم قال متظاهراً بالاهتمام:

- لا تقولي إنك غير راضية عن المكاسب التي حققتها المرأة في الغرب، على الأقل، لا تفعلي ذلك في بلد عربي، حتى لا يتهموك بالتخلف، فالنساء يبحثن عندنا عن المساواة، ولا يمكن لأيّ شيء أن يوقفهن عن العراك في شوارع المعارضة النسائية!!

- الإسلام أعطى المرأة عندكم أكثر مما تستحق..

نظر إليها بدهشة، فقالت على الفور:

- أعني أنه أعطاها أكثر مما تطلب، فالمساواة بحدّ ذاتها انتقاص من قدر المرأة يا عزيزي.. لا أدعي أنني توصلت إلى هذه الحقيقة في فترة قصيرة، ولكن أصرُّ على أن المساواة في صالح الرجل وحده، وهذا ما ينعم به الرجل عندنا!!

- أنا لا أفهمك، أنت مع المرأة أم ضدها؟!

- أنا مع حقي في أن أعامل كامرأة، ما دام الرجل يُجبرني على أن أعامله كرجل..

- ألم تتجاوزوا في الغرب كل هذه الأمور، ألم يصبح العمل في البيت أمراً لا يهين الرجل وحتى أن يترك دفة الإنفاق لزوجته أمرٌ لا علاقة له بكرامته!!

- هذه ليست مساواة.. إنها مجرد تبادل أدوار.

ضرب رأسه بأصابعه ضربات خفيفة. ثم قال ضاحكاً:

- لو سمعتك أمي ستقول إنك مجرد امرأة غاضبة، وقد يعجب (حياة) شكلك وأنت تتحدثين بحماسة، أتعرفين؟! لا يمكن لأحد أن يفهمك غير عليّ.

هزة خفيفة حركت دمعة ساكنة في عينيه، فأكمل بشيء من الانكسار:

- عليّ يعرف كيف يصف الحقيقة يا سيدتي، يمكنه أن يتخيلها، لو رأيته كيف يتحدث عن الجوع والمقاومة، لو وصل إليك صوته وهو...

وعاد بذاكرته إلى غزة... غزة بكلّ أحزانها!!

غزة بعيدة

الشـوارع مـرصـوفـة بـالدم والغـبـار، وأنين حـارق يخـرج من الإسـفلت عبـر الدخـان المسـيل للدمـوع، بينمـا يحـمـل الملثمـون الحجـارة الصغيـرة، ويلقونها بكل عـزمهم نـحـو الجنود، كان عليّ يصـارع الـرغـبـة بالانـقـضـاض على الموت، ليـمـنح نـفـسـه فـرصـة جديدة للمقاومة..

طرق شـديد على الباب، الشـمس تكاد تـختفي بجنونهـا، لكن اليد المجنونة على الباب، تُصرُّ على كسره إنْ لم يفتح!

نهض وائل بفـزع، فتح البـاب، بينمـا كـانت حيـاة تراقـبـه من بعيد وهـي ترتجف قلقاً، وسـرعـان مـا أطل وجه عليّ بكثيـر من الضيـق، وهو يدخل الدار، بينما اشـتعل خلفـه الرصـاص، مـهدداً بمزيد من الدم والألم!

تبعه وائل سـاخراً، قـال له وهو يغلق باب الغرفة عليهمـا:

- غداً تأتينا جثة على أيدي غيرك من الأغبياء!!

- المهم أنك وحدك العاقل فينا!!

- تسخر مني؟!

- لا أدري كيف استطعت أن تتحول إلى حرباء لعينة، لا يهمها سوى الهرب من الموت، ولكنّ لا تنسى يا وائل أنها وإن حافظت على حياتها، تظل مخلوقاً بشعاً لا يمكنه أن يفعل شيئاً سوى الهرب، الهرب يا وائل، أتفهم ما أعني؟

- الفرق بيني وبينك يا عليّ أنك مصرٌّ على تشكيل هزيمتك بيديك، أما أنا، فأفضل ألا أخوض معركة، أعلم منذ بدء المواجهة أني الخاسر فيها!!

- معركة يحارب اللّه فيها معي لا يمكن أن أخسرها!!

- منذ ثلاثين عاماً يحارب اللّه معنا.. ما الذي حدث؟!

- إن اللّه يميز الخبيث من الطيب، ليظهر الرجل من الحرباء!!

- لن أغضب، ولن أصرخ في وجهك، لتقول إن هذا تصرف من لا حجة له، ولكني أرجوك أن تكف عني يا عليّ، أيام قليلة وتفقد صوتي، فلا يعد يضايقك.

نظر إليه علي بغضب، ثم قال برجاء:

- ألا تشعر بالعار يلطخ جسدك، وأنت تهرب من أرضك، في حين تدافع النساء عنها بالحجارة والخبز؟!

هرب من عيني عليّ بضحكة مصطنعة، قال على إثرها؟!

- من قال إن الغباء مقتصر على الرجال دون النساء؟!

- لأن الزمن يتلون بقلوب رجاله يا وائل، أقسم أن هذا

الزمن لعين كقلب شيطان! ألا يحزنك رؤية البنات ينزلن بالحجارة إلى الشارع، ليقذفن بها الجنود، ألا يغضبك الرصاص حين ينغرس في جسد طفلة تركت دميتها، وركت خلف المقاومة؟!

- توقفوا عن رمي الحجارة، ليتوقف الموت الرخيص!

- أتعرف متى تقاتل المرأة يا وائل؟

فأجاب بسخرية:

- حين تصل إليها حمى الأوهام المحشوة بها رؤوسكم.

- بل حين يعز الرجال!

- ليس هناك أكثر من العرب!!

- المصيبة أنهم يشبهونك يا أخي!

- ماذا تعني؟!

- أختك تحمل الخبز إلينا، ونحن نمضي الوقت في الشوارع، نقاوم الجوع والبرد، بينما تنام في فراشك الوثير، تحلم بالرغد الذي ستوفره لك، حبيبتك الشقراء.

فأجاب بغضب:

- تعلم أنني حاولت أن أمنعها. لولا تدخل أمي.

- تمنعها من الجهاد حسداً من عند نفسك، أم أنك تقتل بذلك نوراً يكاد يضيء في صدرك.

- أنا رجل هنا، وعليها أن تطيع أمري!!

حدّق عليّ في وجهه، ثم هزّ رأسه بيأس وهو يقول:

- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..

- ولكنها بنت!

- وهنا الجهاد فرض عين.

وانتهى الحوار الغاضب إلى خوف مفاجئ، هاجمهم بطرق شديد على الباب..

التحليق على ارتفاع منخفض...

اكتشف وائل أن السيدة لم تتوقف عن الكلام، رغم أن صوتها كان أبعد الأشياء إليه، سمعها تقول بإعجاب:

- الإسلام قدم الحلَّ المثالي للمرأة، حين أحل لها الطلاق، أنا لا أنكر أننا استفدنا الكثير من الحضارة الإسلامية.

- الطلاق يعجبكم، وتسخرون من السماح للرجل بأربعة من النساء، وتعتبرون ذلك تحقيراً لها؟!

- الذين يجهلون الإسلام هم الذين يعتقدون ذلك!!

فأكمل بسخرية آذتها: - أما أنت.. فلا؟!

- ومَنْ قال لكَ إن المسيحية تُحرّم الزواج بأكثر من واحدة؟! إنهم لا يعترفون حتى بإنسانيتها..

توقفت لحظة، ثم رفعت معطفها عن حقيبتها الصغيرة، وأخرجت منها دفتراً صغيراً، وقالت بحزن أقرب إلى السخرية:

- (سأخبرك الآن ما هي المسيحية)

وبدأت تقرأ بقرف شديد:

- «في القرن الخامس اجتمع بعض اللاهوتيين ليبحثوا

ويتساءلوا في (مجمع ماكون): (هل المرأة جثمان بحت أم هي جسد يُناط به الخلاص والهلاك) وأخيراً قرروا أنها خلو من الناجية (عذاب جهنم) ما عدا أم المسيح».

وقد أصدر البرلمان الانكليزي قراراً في عهد هنري الثامن ملك انكلترا، يحظر فيه على المرأة أن تقرأ كتاب (العهد الجديد) أي الانجيل، لأنها تُعتبر نجسه».

وظلت النساء طبقاً للقانون الانكليزي العام - حتى منتصف القرن الماضي - غير معدودات من (الأشخاص) أو (المواطنين) الذين اصطلح القانون على تسميتهم بهذا الاسم، لذلك لم يكن لهن حقوق شخصية، ولا حق في الأموال التي يكتسبنها، ولا حق في ملكية شيء، حتى الملابس التي كن يلبسنها.

ويقول الأب جريجوري تورماكوس: «لقد بحثت عن العفة بينهم ولكنْ لم أعثر على أيّ عفة، يمكن أن نعثر على رجل - من بين ألف رجل - ذي عفة وحياء، ولكن لن نتمكن أن نعثر على امرأة واحدة لها عفاف وخجل».

وحتى لما قامت الثورة الفرنسية (نهاية القرن الثاني عشر) وأعلنت تحرير الإنسان من العبودية والمهانة، لم تشمل بحنوها المرأة، فنص القانون المدني الفرنسي على أنها ليست أهلاً للتعاقد دون رضا وليها إن كانت غير متزوجة، وقد جاء النص

فيه على أن القاصرين هم؟ الصبي والمجنون والمرأة!!

واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٨ م حيث عدلت هذه النصوص لمصلحة المرأة، ولا تزال فيه بعض القيود على تصرفات المرأة المتزوجة!!

فلما عدل القانون الفرنسي في ١٩٣٨ م لرفع القيود عن أهلية المرأة بقيت أهليتها مقيدة بقيود قانونية وقيود ناشئة عن نظام الأموال المشتركة بين الزوجين.

فمن القيود القانونية عدم جواز ممارسة المرأة الفرنسية إحدى المهن بدون موافقة من زوجها..

ومن القيود المنبثقة عن نظام الاشتراك بالأموال أن المرأة الفرنسية المتزوجة لا يمكنها أن تتصرف بأموالها الخاصة، ويجب أن تحتفظ بحق الانتفاع للزوج، ولا يمكنها أن تتصرف إلاّ بموافقة من زوجها، وإذن المحكمة وحدها لا يكفي!!

تركت المفكرة تهرب من يدها إلى جوف حقيبتها، ثم قالت كمن تذكر شيئاً: -

- ثم قل لماذا توافق المسيحية أن يُبقي المسيحيون الأفارقة على زوجاتهم الكثيرة والتي قد تزيد عند الشخص الواحد عن ثمانية، تحت حجة أنها الطريقة الوحيدة لضمان دخولهم في المسيحية.. ولماذا ينسون أن الكنيسة اجتمعت بعد الحرب

العالمية الأولى ووافقت على فكرة تعدد الزوجات بسبب النقص الشديد في عدد الرجال آنذاك.. وسكتت عن الكلام فجأة ونظرت إليه بخجل، فقال ضاحكاً:

- أرجوك.. لست (البابا).. أنا مسلم.. وأعرف أن الخوف والحقد الصليبي جعل الغربيين لا ينظرون إلى الإسلام بأبعد من أنوفهم!!

عادت إلى هدوئها، وقالت بلطف شديد:

- معلوماتي تقول أن الإسلام سمح بذلك، لكنه لم يدعُ إليه فحسب بل أحاطه بالشروط التي تكفل الحفاظ على حياة المرأة وكرامتها.. أنت عربي مسلم، وهذا يعني أنك تعرف أكثر مني في هذه الأمور..

حدّق في وجهها، ضحك فجأة، ثم قال وهو يشير إليها:

- أنت مسلمة أكثر مني!

فأجابت وهي تهرب بنظراتها منه:

- أنا مسيحية، ولكني أعتقد أن المسلم رجل مؤمن، ولا شك أن محمداً لم يكن رجلاً عادياً.. وربما كان رسولاً من عند الرب.. لا... بالتأكيد كان رسولاً من عند الرب!!

صمتت قليلاً، ثم قالت بشرود:

- ربما أنا في طريقي إلى الإسلام.. ولكنّ شيء ما يجعلني

أتوقف أكثر من مرة.. ربما أولادي!

- ابني الأكبر لم أره منذ عامين.. العام الماضي سمعت صوته بالتلفون..

ضحكت بحسرة وهي تقول:

- كان (عيد الأم).

- الحياة لا تخلو من الهموم!

- أنت أيضاً تترك أسرتك أيها الشاب، وتبحث عن وهج الغربة، رغم مرارتها!

- لي أسبابي.

- ابني أيضاً يقول ذلك.. أُجبر نفسي على تصديقه، كي أصدق أنه يحبني!!

- انت امرأة طيبة.

- لا تتسرع في الحكم على الآخرين!!

الهموم تصحو باكراً

نظر إليها، الابتسامة الواثقة في وجهها جعلته يتقهقر، ابتعد بوجهه كعادته، ولكنّ أنفاسه ظلت تأتيه بتلك الرائحة المخيفة!

الدم الجاف يغطي وجهه، وينز من يديه المكبلتين بالسلاسل جنون يُطل من العيون المرتجفة، يجلس بينهم يفكر بأحلامه الصغيرة، كي لا يسقطه وهم كبير، يترصده في وخزات أسلحتهم، وشتائمهم بالعبرية والتي كان يسلي نفسه بترجمتها!!

صرخة حادة! وألم امتدّ من أعلى الظهر إلى أسفل القدمين، وهو يتلقى ضربة قوية من قاعدة البندقية. وصوت يصيح بكل ما حمل من احتقار:

- كلب!

في غرفة التحقيق لم يكن الأمر سهلاً، كما أخبره الرفاق، الدخان المتصاعد من الفم الضخم الذي تصدر الرأس الكبيرة كان يقلقه، يدفعه لذكرياته التي استطاع أن يقاوم قلقها.. نظر إلى المحقق، البزة العسكرية في غاية الفوضى، ونجمة داوود تربعت على الطاولة المعدنية تنظر إليه بازدراء، علبة سجائر بجانبها،

وبعيداً عنهما مجموعة من الصور، لم يحاول وائل أن ينظر إليها. رغم تحرقه لاكتشاف أيّ خطر قد يُؤدي به، قال لنفسه بإصرار: (يجب أن أبدو واثقاً من كلماتي، فهؤلاء لا تؤثر فيهم السذاجة).

أجلسوه على مقعد خشبي، ابتسم المحقق بادئ الأمر، ورحب بصوت خفيض لم يتبينه وائل رغم شدة إصغائه، قدم المحقق علبة السجائر إلى وائل، وقال بلطف:

- سيجارة؟

- لا أدخن.

- خسارة! لقد علمتني التجربة أن السيجارة أفضل وسيط لتحقيق التفاهم بين الناس!

- يبدو لي الأمر مختلفاً بين المحقق وسجينه!!

- سجين؟! من قال هذا؟!

- القيود التي شبعت من لحم يدي حتى تقيأته دماً وصدأ حضرة المحقق!!

حدّق المحقق في وجهه طويلاً، قبل أن يشير لأحد الجنود بفك قيوده ثم يقول موضحاً:

- لست سجيناً يا وائل، أنت فقط موقوف!

- يدهشني أن تجد فرقاً بينهما، في حين أنني أمضي الوقت في زنزانة منفردة، لا ضوء ولا هواء، وليس فيها سوى الجوع والتعذيب!!

- يمكنك أن توفر على نفسك كل هذا، أنت تعرف أنه لا يوجد عداء شخصي بيننا، وأننا نكافئ كل من يُبدي حكمة وتعاوناً، نحن نعرف عن تورطك في العديد من الأعمال التخريبية ولكننا على استعداد لأن نغفر لك كل ذلك إن ساعدتنا في الحصول على بعض المعلومات.

- أنا مواطن عادي، أعمل في بيع السمك، منذ تخرجت، ولا أعرف شيئاً عن الأعمال التخريبية التي تتحدث عنها!!

- الجامعة هي رأس الفتنة ياوائل، أتعرف لماذا؟

- لأنها تمنح الشهادة، وتترك العمل للحظ.

- بل لأنها تدفعكم للكتب التي تفسد عقولكم، وتمنحكم فرصة للتجمع والتكتل، ولكن ألا تعتقد أن لنا عيوننا هناك؟!

- لابد أن عيونكم تعرف أني كنت طالباً مجتهداً، ولم يكن لديَّ وقت لأضيعه مع الباحثين عن المشاكل.

- عيوننا تقول إنك رئيس لمجموعة مكونة من خمسة أشخاص، وأن هذه المجموعة ضايقت دورياتنا في غزة أكثر من مرة! أفراد المجموعة كلهم لدينا، أتحب أن أذكر لك أسماءهم؟! بل دعني أريك صورهم.

ونثر الصور في وجهه.

حاول جاهداً أن يخفي دهشته وهو ينظر إلى الصور، لكنه فشل

فالصور لا تعني غير أمر واحد هو تحديد الجاسوس من المجموعة.

أحسّ المحقق بارتباك وائل فأكمل بارتياح:

- أنا واثق من أنكم تنتمون لمجموعة كبيرة، تنتظم في جماعات صغيرة لتخدعنا، فاعترف ياوائل، وأعدك بأني أنسى علاقتك بهؤلاء المخربين، أنت أكثرهم ثقافة، وهذا يجعل التفاهم بيننا ممكناً!!

لكنّ وائلاً ظل يتفحص الصور، وقد عاد له هدوء نفسه:

- هؤلاء بعض أصدقائي وأقاربي، فأي غرابة في أن تُلتقط لنا صور معاً؟!

- وائل! أنصحك بألا تراوغ، فلدينا معلومات كاملة عنك، وهذه المعلومات كفيلة بجعلك تعيش بقية عمرك في زنزانة سوداء، لن تقدر فيها حتى على تخيل وجه أمك، ولكننا ونعتقد أن هناك من خدعك، وجعلك تسير رغماً عنك في طريقه الإرهابي، فعد إلى صوابك، ودلّنا عليه، ودعنا نتكفل بالحصول على عمل لك، يريحك من رائحة السمك النيء، ويمكنك من رسم مستقبلك من جديد.

- ليتني أعرف عما تتحدث!!

- إنّ كنت خائفاً منهم فهذا وعد مني بأن نحميك!!

- ليتني أستطيع مساعدتك، فأنا لا أحب هذه الزنزانة.

- صدق حين قال أنك أكثرهم دهاء!

- هو يكرهني!

- من هو؟!

- الذي خدعكم، وقدم لكم معلومات خاطئة.

- ولكننا ندفع جيداً.

- وهل تريد مبرراً أقوى من هذا، ليقدموا لكم الضحية تلو الأخرى، حتى وإن اضطروا لاختراعها.

- بدأت أفقد صبري ياوائل، وهذا ليس في صالحك، فحتى هذه اللحظة لم آذن لهم بتعذيبك، فقد أوصانا أحدهم بك خيراً، وأكد لنا بأنك لن تُتعبنا.

الحزن والذكريات

قالت العجوز وهي تنظر بدهشة:

- لقد رحلت بعيداً!

أغمض عينيه قليلاً، ثم قال لها في حيرة

- إن الحكم على الأشياء في غاية الصعوبة، أتعرفين لماذا؟!

ولم ينتظرها لتجيب، بل قال على الفور:

- لأن الشيء الوحيد، يُنظر إليه من أكثر من زاوية، وهذا يعني أن هناك أكثر من احتمال لحقيقته، وبالتالي مهما انتظرنا لنصدر حكماً عادلاً، يظلُ احتمال الوقوع في الخطأ قائماً لا محالة!!

- لا تنس أننا بشر!!

- وهذه أيضاً ليست في صالحنا، فكيف تقاوم ضعف من هاجمك بضعفك؟!

- أنا لا أفهم شيئاً مما تقول!

- لماذا نربط الجرأة بالجنون؟!

- نظرت إليه باستغراب، ثم أجابته بحسرة:

- لأنك إن ملكت الأولى، منحك الناس الثانية!

ظلّ يكرر كلماتها بصوت خفيض، حتى ابتلعته، مع الأصوات المنطلقة عبر الذاكرة المتعبة.. الجسد يأبى التماسك. يتفتت بصمت، ولا يقدر على إصدار أنة واحدة، رغم الألم!

الدم يتدفق من كل الأماكن، الفم، الأنف، الأطراف، وحروق تتوزع الجسد المنهك رغم المقاومة! كانوا كثيرين، وكان وحده بينهم يرسم ذكرياتهم ليقاوم، ابتسامة أمه وهي توقظه ليتناول الفطور، صياح حياة وهي تبدي تذمرها من الفوضى في غرفته، وعليّ الذي يقضي معظم وقته في حفظ القرآن.

ابتسامته جعلتهم يتصرفون كفئران خائفة، وهم يجرونه إلى الزنزانة، كانت الدهشة تغلف ابتسامته بلذة الاكتشاف، لقد اكتشف أنه يحفظ قدراً كبيراً من القرآن دون أن يدري! قَدْراً يجعله أكثر استعداداً للصمود!

الغرفة نفسها، والزفير الكريه ينفث في وجهه الدخان الرديء، لكن المحقق تغير، هذا الذي يجلس خلف الطاولة هذه المرة يبدو أكثر صرامة:

- اجلس، لا وقت لدي لأضيعه في مناقشة أمور أنت تعرف أنها حقيقة نريدك أن تعترف بها.

- ما فائدة الاعتراف ما دمتم ترونها حقيقة؟!

- من الذي يحرضكم؟ يمولكم؟ لا بدّ أن هناك من يعتني بولادة جماعات صغيرة كالتي تنتمي إليها.

- الجماعة التي تتحدث عنها ليست سوى أصدقاء لي نجتمع معاً بين الحين والآخر لـ..

- لتضايقوا الجنود، أليس كذلك؟

- بل لنستمتع بوقتنا ككل الأصدقاء نقول النكات، ونخترع القصص الخرافية، نشتم الزمن، ونحمل أهلنا مسؤولية فقرنا وفشلنا!!

- لو كنت في مكان آخر لصفقت لك، ولكن الحقائق التي أمامي تُجبرني على إعادتك للتعذيب.

وأشار لأحد الجنود بأخذه، وما كاد يقترب منه الجندي حتى صاح وائل متداركاً:

- اختر الحقيقة التي تعجبك، وسأعترف بها.

فما كان من القائد الذي فتح أذنيه على وسعهما إلا أن بصق في وجهه، وصاح بغضب:

- ستعترف يا ابن الـ... ستعترف!!

العودة إلى المستقبل

قال للعجوز وهو يسمح وجهه بكفيه:

- عندما يشتد إحساس الإنسان بالضعف، يحس بقرب اللّه منه!

كانت تتأمله بكل جوارحها، وتمعن في مراقبة حركات وجهه، أومأت برأسها دليل الموافقة، ثم قالت بشرود:

- عندما يتسرب الشعور بالعجز إلى الإنسان يفقد ثقته بنفسه، ثقته التي تصور له الحياة ظلاً لخطواته، وفي لحظة يجد المرء الحقيقة كالسدُّ الأصم أمام عينيه، ليرى نفسه ضعيفاً، مكبلاً بالخوف والرجاء، إنه الأمل يا عزيزي، محاولة للبحث عن قوة يعتقد أنها قادرة على جلب الخلاص، ولو أحسّ الإنسان بتفوق أيّ شيء في الوجود، وتفرده بقوة يمكن أن يلجأ إليها، لما رفع يديه بالدعاء سائلاً تلك القوة المتفوقة أن تساعده!!

- تقصدين اللّه؟

- الخوف يا عزيزي يشل التفكير، تماماً كما يحدث لفأر التجارب، حين يتعرض لأمر مفزع، تجده يتخبط يميناً وشمالاً، دون أن يعثر على الطريق الصحيح، وبعد أن يرتطم بالعديد من

الجدران.. الضعف يوجد خوفاً من نوع مميز، لأنه لا مجال فيه لزرع أيّ وهم ينظم ضـــربات القلب، في حين أن الأرجل ترتجف، والخوف يشل قدره المرء علي تنظيم حواره مع نفسه، فيعود بصورة تلقائية إلى إحساسه بأن هناك قوة طاغية، قادرة على انتشاله من المحنة، فيرجوها ويتوسل لها، وهذا يعني أن الإحساس مخزون في داخله، وإن استطاع أن ينكر وجوده في الظروف العادية التي يكون فيها المرء متوازناً مع محيطه، ويظن نفسه مِلْكاً لكل القوى التي تؤثر فيه.

سكتت قليلاً، وبدت كمن يعتصر الذاكرة ثم قالت وهي تحك رأسها بحركة خفيفة:

- أنتم تسمون ذلك الإحساس الفطرة الإنسانية، وأنا أعتقد بوجودها، لأني عشت ذلك الإحساس، حين أصيبت الطائرة التي أقلت ابني إلى (روما) بعطل كاد أن يسقطها، اعتقادي بحتمية استقبال أحزان جديدة بفقدان ولدي جعلني أقرأ القرآن ياعزيزي، رغم أني مسيحية!

- هل الخوف وحده يقربنا من اللّه؟!

- ربما الرجاء يدفعنا لإيقاظ ذلك الإحساس في داخلنا، حين تلح علينا رغبة نؤمن تماماً أن لا سبيل للوصول إليها، باختصار، اكتشاف المرء مقدار ضعفه سواء بالخوف أو الرجاء،

يدفع الإنسان إلى الإيمان باللّه.

سألها بدهشة أسعدتها:

- كيف توصلت إلى كل هذا؟

- عندما كنت في مصر، سمعت أحد الدروس الدينية، وكنت حديثة عهد باللغة والناس، فكان كل شيء يشدني إلى عالم التأمل، شكل المآذن، صوت المؤذن، الكلمات التي لا تجد صعوبة بالتسلل إلى أعماقك، عندما سمعت كلمة (اللّه أكبر) سألت الدليل عن معناها، فأجابني وقد استغرقه الأمر وقتاً طويلاً من التفكير.

«إنها تعني أن اللَّه قوة لا تُهزم»

- أيمكن لتلك الكلمات أن تأتيك بكل هذا الإيمان؟!

- بل جعلتني أكتشف حقيقة أدهشتني، وهو أنكم لا تفكرون كثيراً في هذه الكلمات، ترددونها في صلاتكم، وقد تستخدمونها في أحاديثكم، دون أن تشعروا بعمق معناها، لقد احتاج ذلك الرجل الذي اعتذر منا ودخل ليصلي، وقتاً طويلاً لعبر عن شيء يتعامل معه بخضوع تام، وباعتراف غير قابل للمساومة!!

- ضرب على ركبته بكفه ضربات خفيفة، ثم قال محاولاً أن يكظم غيظه:

- قد يصعب على المرء وصف ما يراه، رغم أنه يملأ عينيه على وسعها، وملكة الكلام قد لا تواتي كل شخص، كما الحال بالنسبة لك يا سيدتي!!

تجاهلته كعادتها وأكملت:

- المهم، سمعت في أحد الدروس الدينية..

- لقد فكرت وقتها بتدوين مذكرات خاص، عن الحياة في مصر، وعن طبيعة العلاقات بين الناس وبخاصة مظاهر الدين والحياة فيها، كنواة لكتاب أتحدث فيه عن الشرق.

- هكذا أنتم دائماً، كل ما تفكرون فيه هو التحدث عنا، وكأننا قطعة فنية فريدة، على جميع المهتمين أن يجدوا طريقهم إليها، بعد أن تُعدوا عشرات الكتب عن مظاهر ضعفها وقوتها، مما يجعلها مكشوفة لكل الذين يترصدونها، أنتم العلماء الأجانب أخطر على أمتنا من السلاح ورغم ذلك لا نجد عنكم بديلاً سوى الصمت!!

نظرت إليه بضيق، ثم عادت لتكمل:

- سمعته يقول: دليلك للإيمان باللّٰه، ألا تأمَنَ مكرَهُ، أو تقنَطَ من رحمتهِ!

الإيمان كما يراه المسلمون هو تلك العبارة البسيطة التي لم تكن أسهل من الهيروغليفية بالنسبة لي!!

بدا عليه الاهتمام، فأكملت بثقة:

- لم أترك وسيلة لتقوية لغتي العربية إلا واستخدمتها، وقد نصحني العديد من الأصدقاء بقراءة القرآن لأمسك اللغة من ناصيتها ففعلت، ولكني لم أتوصل لحل ذلك اللغز، رغم أني استطعت أن أتوصل لترجمته الحرفية وحدي، ودون مساعدة من أحد.

مصت شفتيها، وهي تقول بحنين هزّ مشاعره قليلاً:

- في بغداد اكتشفت حقيقة اللغز البسيط، لا أدري كيف! ولكن توصلت إلى أن القنوط من رحمة الله هو التوقف عن الرجاء وبالتالي تمزق إحساسك بقدرة اللّه على إعطائك!!

- ماذا عن مكر اللّه؟

- خوفك من مكر اللّه يعبر عن إيمانك بقدرته على الإيقاع بك ومعاقبتك، فإن أمنت مكره كفرت بقدرته واستهنت به!!

- هذا يعني أن الإيمان خوف ورجاء!

- تماماً، كخوفك النار.. ورجائك الجنة!

قال بانفعال، انتزع ابتسامة ارتياح من وجهها:

- أنت رائعة!

فأجابت بزفرة عبَّرت عن كَمٍّ هائل من المرارة داخلها:

- إن ديناً يعبر عن عمق الإيمان بكلمات بسيطة وحقيقية لا

يمكن أن يكون إلا من عند اللَّه، فـاللّه أقـدر على التـعـبـيـر عن نفسه وعنا، لأننا نحسه ولا نراه.

دقت الكلمات الأخير طبولها في رأسه (نـحسه ولا نراه!) ثم تلاها النفير للرحيل صوب الذكريات المؤلمة.

الوجوه والقلوب

يريد أن يشرب، حلقه جاف، وشفتاه ترفضان أن تلتصقا، رغم المحاولة!

أنين يحتضر في جوفه ويكابر: (إما أن يتعبوا من تعذيبي أو أموت!).

الكلمات ترتفع لتصل إلى فمه المفتوح من الظمأ، تكاد تنشر جنونها في أيديهم الحاقدة وعيونهم، لكنها تتراجع، وتبحث عن مبرر واحد، يجعلها تنام في جوفه! هم لا يريدون سوى الكلمات، فلماذا لا يعطيها لهم لينتهي هذا الجنون!

شيء في داخله يُخلق، يكبر، ويصير رجلاً، يصفعه بقوة ليوقظه، ثم يموت داخله ليخلق من جديد. قال لنفسه وهو يحاول أن يراهم بعينيه المتعبتين، فتخونه الهالات الزرقاء المحيطة بهما، لكن يعيد الكرة وهو يقول لنفسه بسخرية مرة:

- الموت رهانكم الأخير وأنا الذي سأكسبه، أعرف أن كلماتي لن تضيف لمعلوماتكم الكثير، ليست الكلمات مطلبكم أيها الجبناء بل انكساري!

ويشتد الألم، ليرتكز في الخاصرة، وتطعنه سكاكين يحسها ولا

يراها، لتملأ صرخاته المكان بسقوط وحشي، متعطش للموت.

ساقوه إلى غرفة التحقيق، كانت معتمة بعض الشيء فهو لم يتبين وجه المحقق، ولم يستطع أن يُحدد إن كان هو نفسه الذي أمر بتعذيبه في زنزانة الموت، أم شخص آخر، لكنه قال لنفسه وهو يبتلع كلماته: (ما فائدة اختلاف الوجوه، مادامت القلوب تحمل السُمَّ نفسه؟!)

- إجلس.

ويحاول، لكنه لا يستطيع، يساعده أحد الجنود بمنتهى القرف، ثم يشعر بالكرسي فلا يصدق نفسه:

- لقد طلبت منهم أن يوقفوا تعذيبك، فأنا لا أريدك أن تموت!

- الموت والحياة بيد اللّه.

نظر إليه المحقق، حدّق طويلاً، مص شفتيه بغيظ ، وقال:

- لا تظن أنه سيحميك مني، فأنا أملك موتك وحياتك ولا تعتقد أن موتك قد يعني الكثير لأحد، حتى أمك!

نظر وائل إلى المحقق، نظرات غاضبة أطلت من عينيه، فارتطمت بالوجه الجاف.

شعور غامر ملأ قلبه، فأجاب المحقق بإصرار:

- اللّه في قلبي، ولذلك أنا لا أخافك.

- تتحدث عن الخوف؟!

- ليس لديَّ ما أقوله لكم.

- أنا واثق من أن لديك الكثير لتقوله لنا.. آه! لقد نسيت!

أشعل سيجارة، نهض بتثاقل، تجول في الغرفة بخطى وئيدة، ثم قدم لوائل سيجارة وهو يقول بكثير من التصنع:

- سالم الفتوح رجل رائع!

الاسم انفجر في رأس وائل، فلم يستطع أن يخفي دهشته لكن المخبر تابع قائلاً:

- أنا لا أنكر أننا اعتقدنا أنه مثلكم أول الأمر، فعاملناه بقسوة، لكنه أثبت بعد ذلك أنه جدير باحترامنا!!

أطفأ السيجارة، ثم قال بسخرية:

- إنه يحبك كثيراً، لقد طلب منّا أن نعاملك بلطف، فقررنا أن نسمح له بزيارتك، بعد أن زودنا بما نريد.

ثم أكمل بعصبية:

- أريت يا وائل، إنهم مستعدون لطعنك خوفاً على حياتهم، سالم الفتوح اعترف بكل شيء، وحملك وحدك مسؤولية التعرض لجنودنا، وتحريض الناس ضدنا. إنهم يخدعونك، بينما تحميهم بما تبقى من جسدك.

بصعوبة ابتلع ريقه، وهو يقول بإصرار أغاظ المحقق:

- سالم الفتوح كاذب، إنه يكرهني! كنت دائماً متفوقاً عليه في كل شيء!!

- ولكنه صديقك!

- بل رفيقي، أمضينا أوقاتاً ممتعةً مع بعض الرفاق ليس أكثر.

وأشار المحقق بيده إلى أحد الجنود، فخرج، ليعود ممسكاً بذراع سالم الفتوح، الذي مشى بخطى سريعة، جعلته يجرُ الجندي إلى الداخل.

جلس على الكرسي المقابل، عيناه ملتصقتان بالأرض، كرشه منتفخ قليلاً ولكنه بدا أصغر من قبل.. نظر إليه وائل، الغرفة معتمة، والعيون مرهقة حتى النعاس، لكنه حدّق في وجه سالم، وفي جسده الملقى على الكرسي بارتياح!

نظر إلى نفسه، يكاد جسده يئن من الألم، بينما يجلس جسد سالم الفتوح على الكرسي بصمت، لا ألم! ولا آثار للتعذيب!

وصله صوت سالم من بعيد، رغم أنه كان يجلس مقابله:

- كيف أنت يا وائل؟

خرج المحقق وتركهما وحدهما.

- يكفيك ما فعلته بنفسك يا أخي! قل لهم ما يريدون وارحم نفسك، لقد هدّني التعذيب قبل أن اكتشف أني أدفع الثمن عن أُناس لا يستحقون ما أفعل!

- لا يبدو عليك التعذيب، أو حتى الإهانة!

- هم لا يريدون سوى بعض الكلمات، قلها وسترى كم هم

طيـبـون! لا فـائدة من المكابرة، إنهم أقـوى منا، ويمكنهم أن يقتلونا، دون أن يُحدث ذلك أكثر من صرخة مكتومة في جوف أمك! صدقني.. لقد اعترفت بكل شيء، وأنصحك بأن تفعل مثلي، فبقاؤنا أحياء مكسب كبير للوطن يا وائل، ولا أري جدوى من بقائك في السجن! لا تجعلهم يخدعونك بشعارات البطولة والتضحية، الذي يده في النار ليس كالذي يده في الماء، فلا تكابر!!

نظر إليه وائل بجمود، ثم سأله باحتقار :

- هل انتهيت؟!

- أهلك يواجهون ظروفاً صعبة، فأمك مريضة كما تعلم، ولم تعد قوية كما كانت وعمك يحاول إرغام أختك حياة على الزواج من ولده السِّكّير، فعليّ ما زال صغيراً، ولا يمكن الاعتماد عليه.. ناهيك عن مضايقة اليهود لهم، رفقاً بهم ياوائل! أم ترُاك استبدلت قلبك بصخر كالذي يملأ رأسك؟!

زفرة غاضبة ملأت جوفه، لكنه عضّ شفته، وسأل بإصرار:

- هل انتهيت؟!

- صدقني، لو كانوا مكانك، ما تحملوا كل هذا من أجلك، ما كلفوا أنفسهم عناء حمايتك، الألم قاتل، فلا تكابر!

- هل انتهيت؟!

بنفس عميق، تماماً كالذين ينتهون من إلقاء خطبة طويلة:

- أجل يا صديقي، هذا كل ما لديَّ.

نظر إليه وائل بغضب، وجهه يرتعش بحركات غير منتظمة، لكنها مخيفة.. ثم بصق بكل ما تبقى فيه من قوة، بكل ما حملت نظراته من احتقار، ليفتح الباب فجأة، ويقتحم المحقق الغرفة، يتبعه بقية الجنود، بينما يمسح سالم الفتوح وجهه بكمه، وهو يؤكد لوائل أنه لا يعرف صديقه من عدوه!

الخوف والموت

صوت مرح اندفع كفقاعات الصابون نحو أذنية، فابتسم، لتتبخر ابتسامته في صحراء لا تنتهي، وهو يتابع كلمات المضيفة: (أرجو أن تستمتعوا في رحلتكم إلى الولايات المتحدة الأميركية، لا تترددوا في طلب أية خدمة مهما كانت).

التفت إلى العجوز، وقال مستغرباً:

– الصوت المرح يوحي لك بأن صاحبه يملك قلباً طيباً!

– والنظرات الحزينة تخدعك برقتها.. إنها أشياء نقنع أنفسنا بها ووحب.

– ولماذا نفعل؟!

– عندما يصعب على المرء فهم الحقيقة، يستبدلها بوهم لا يفهمه سواه، وبالتالي يدعي أنه وحده القادر على وصفه، في حين أن وهمه لا يثير اهتمام أحد، وبما فيهم الأعداء!

تنهد بعمق، ثم هز رأسه، وهو يزم شفتيه بيأس:

– لا فائدة من حوار يقلب النهار ليلاً، والحق باطلاً!

– ماذا تعني؟!

– الفلسفة سيدتي تضيع الحقيقة، تجعل طريقك إليها أكثر صعوبة، وقد تصبح وعرة لا أمل في اجتيار مخاطرها!!

– الفلسفة تمكنك من وصف الحقيقة بأكثر من وسيلة، وذلك يمكنك ن محاصرتها مهما كبرت، قد تفشل الفلسفة في الوصول إلى نتيجة مرضية، وقد توقعك بعدد من الأوهام لكنها لا تخدعك، فأنت تصنع شباكها، وتوقع نفسك فيها..

– ألا يمكنك فهم الأمور ببساطة فلاحة لم تر من الدنيا سوى سماء زرقاء تتعاقب عليها الشمس والغيوم في فصول لا تنتهي!

ضحكت بفرح، وهي تشير إليه متهمة:

– أنت الفيلسوف، لا أنا!

فأجاب ضحكتها بضحكة مدوية، جعلتها تقول بحنو:

– تبدو طيباً حين تضحك!

– أرأيت؟!

– عندما كنت صغيرة كنت أكره أبي، أحسه ظلاً ثقيلاً يفقأ عين الحب في داخلي، كان قاسياً كصخرة، وكنت أضعف من نملة حين يهوي بيده الثقيلة على كتفي.. دائماً يضربني، أرفض البكاء، فيعيد الكرة ليرى دموعي، وأصر على الوقوف صامتة رغم الألم، أنا مدينة لأبي بكل العناد الذي يزرع رأسي بإرادة لا تعرف الخذلان.

كان يكره الكتب، يمزقها حين يراها بين يدي، وكانت أمي تبكي بكل دموعها تبكي من أجلنا جميعاً، وتصلي لكل آلهة الأرض، حتى يكف عن العربدة في شوارع المدينة.. أينما وجدته تراه حاملاً زجاجة من الويسكي يجول فيها بحقده وكسله، باحثاً عن جسد رخيص، يمنحه بعض الدفء، رغم أن أمي كانت تنظره طويلاً، جميلة وحزينة، تسرق من أنفاسنا حرارتها، وتقسم أنها لا تشعر بالبرد رغم أنها ترتجف!

تنهدت بألم، ثم قالت بابتسامة فشلت في إخفاء دمعة فرت من عينيها:

- كان عمري تسعة أعوام، حين قلت للقسيس : أني أعجب لأن اللّه لم يُحرّم الخمر، وحرّم على أمي إلقاء أبي من النافذة، ليعيش مع الزجاجات الفارغة، حيث يمكنه أن يتنفس هواء نتناً، كالذي نتنفسه حين يعود.

ضج الناس بالضحك، حتى أحسست المقاعد تهتز باهتزاز أجسادهم، بينما ارتسمت أصابع أمي على وجهي بصفعة قوية، ما زالت تؤلمني!

ابتسم القسيس بحنو، ووضع كفه على وجهي، عنّف أمي، ثم قال لها إني طفلة مؤمنة، ولكني لم أتوصل لحكمة اللّه بعد..

- أكثر الذكريات التصاقاً بنا، أكثرها إيلاماً!!

- مات والدي مقتولاً، قتله رجل ثمل، من أجل زجاجة

الويسكي التي كان يحملها، طعنة في الظهر، جعلته يفارق زجاجته اللعينة، ويفارقنا.. عندما عرفت أمي بالأمر بكت، سقطت على الأرض من الصدمة، لكنني لم أرَ دموعها في عينيها، رغم الحزن!

- هل شعرت بالارتياح؟!

- بل بالذهول.

سكتت قليلاً، غطت وجهها بكفها، ثم رفعت رأسها وقالت بتأثر:

- وربما الحزن.. لم أكن أعرف أني أحبه هكذا، في لحظة تحولت كل الذكريات المؤلمة إلى نشيد اعتذار حزين، أقول له فيه أنه أب رائع، وأنني يمكن أن أغفر كل شيء لأن عدوي الحقيقي هو تلك الزجاجة!

ابتسمت وهي تكمل بشرود:

- أثناء دفنه بكيت، دموعي غطت عيني، تمنيت لو أنه يراني ليغفر لي حقدي وكرهي له، وجهه كان غريباً، يحمل ابتسامة لم أفهمها، لكنه بدا طيباً، كما لم يبدُ كذلك من قبل!

ضحكت وهي تمسح دموعها:

- بعد أسبوعين من وفاته فقط، كنت أؤكد لأمي بأن ذلك الثمل المأفون، لا يستحق دموعها، وكنت أتحداه في داخلي، حين أشعر بالعجز، فأقاوم البكاء!

أبعدت وجهها عنه، ثم التفتت إليه فجأة، وباستغراب:

- لماذا أخبرك بكل ذلك؟!

- لأننا حين نغادر أنفسنا، يتعلق حزننا فينا!

سألته بشرود، وهي تضع مجلة صغيرة على ركبتها:

- من منا يخاف الموت أكثر، نحن؟ أم أنتم؟

- أنتم الغربيون تعرفون كيف تجعلون من الحياة عشيقة رخيصة، لذلك تسعون لقضاء أكبر عدد من الليالي معها، والمضحك في الأمر، أن هذه العشيقة غالباً ما تكون قبيحة، تفرض جسدها الهرم على أحلامكم،، ورغم ذلك تتمسكون بأذيالها وكأنها شيء مقدس!

أنتم سيدتي تكرهون الموت، لأنه ينتشلكم من متعة المشاركة في لعبة غامضة، لا تعرفون من سيفوز فيها!!

- ولكننا لا نخاف كل ما نكره!

مطت شفتيها بتأمل، ثم قالت وهي تغطي جانب وجهها بكفها:

- أرى أنكم تخافون الموت أكثر منا، فأنتم دائمو التفكير في احتمال دخول الجنة أو النار، وهذا يجعل الموت تصفية لموقف الإنسان في دنياه، فبموته يفقد حقه باكتساب فرصة جديدة، ألا تظن أن فكرة دخولك النار، أمر يخيفك؟! وجعلك تتمنى لو تعمر طويلاً!

الإنسان عندنا لا يفكر كثيراً بما بعد الموت ، فهو متعلق بمظاهر الحياة كما ذكرت وهذا ما يجعله يكره الموت.

ابتسمت، فكرت قليلاً، ثم قالت:

- وربما يخيفه!

نظر إليها قليلاً، وأكمل بحماسة:

- عندما يصبح من حق الإنسان أن يستمتع بملذات الحياة، دون قيد أو حدود، يصبح الموت غريباً غير واضح المعالم، يتخيله بعضهم بالانتهاء والتلاشي. لكنّ فطرة الإنسان التي تحدثت عنها ترغمه على الإحساس بذلك العالم الثاني الذي ينتظره، فيسعى لخداع نفسه، واقناعها بأن الجنة خلقت من أجله وحده، وعندها لن يعدم الوسيلة التي تمكنه من شراء أكبر عدد من صكوك الغفران، رغم أنه يعلم في قراره نفسه أنّ لا فائدة منها! وستجدينه ياسيدتي أحرص الناس على الحياة ويتمنى لو يعمر ألف سنة، ليهرب من مواجهة الحقيقة التي يحس بها رغماً عنه!.

انظري إلى جنودكم وجنودنا، في معركة حقيقية! وستعرفين كم أنا على صواب.. سكت قليلاً، ثم قال متداركاً نفسه:

- على أن تكون معركة من معارك العصر الحديث، فهذه معارك العقول لا القلوب.. الجندي المسلم يا سيدتي، يكون الموت

بالنسبة إليه فرصة جديدة للبدء من جديد، يتخطى به حدود الأمنيات الصغيرة، أسرته لا تملك الحق في جعله يتردد، فهو يتركها لله مطمئناً، ويسير بخطى ثابتة، أيُّ خوف يمكنه انتزاع جندي مسلم وهو يرى نهايته بداية حقيقية، لأنها طريق الخلود؟

حكَ أنفه بحركة سريعة، ثم قال متأملاً:

- انزلي إلى الشوارع الفلسطينية، لتفهمي ما أقول..

قالت بحسرة:

- جنود لا يملكون سوى الموت. وأطفال يستقبلونه بصدروهم.

عذاب الانتظار

لحظة بدت فيها النظرات متوترة بعض الشيء، ثم قالت العجوز:

- الفلسطينيون لديهم ما يضحون بحياتهم من أجله.

- تقصدين الأرض؟! لو كانت هذه القضية الحقيقية لوجدت اليهود أكثر اندفاعاً للتضحية. فهم يدعون أنّ هذه الأرض هدية من الرب لهم، ثم إنهم أُناس قدموا من أقطار شتى يحملون أحقادهم وأفكارهم العنصرية، ويعلمون جيداً أن أحداً لن يرضى بعودتهم، لو تخلو عن الأرض التي حلموا بها طويلاً، واعتبروها معقلهم الذي ينطلقون منه إلى العالم..

- نقصد أن الخلاف بينكم، هو الدين؟!

- هذا ما أعنية تماماً، بالإضافة إلى أن خلافنا هذا، أدى إلى اختلاف في الأسلوب والمنهج، وكذلك في الغاية، فالجندي لا يفكر بأكثر من حياته حين يطلق النار، بينما يدافع الفلسطيني في الغالب عن حقه في الحياة والموت الكريم، فيلجأ إلى الدين، لأنه رمز وجوده على أرضه. دقائق طويلة من الصمت مرت، جعلت وائلاً يغمض عينيه، لِيُركّبَ من الصور الممزقة لوحة

جديدة! لكنّ وجه عليّ كان يطل بعتاب مرير، يسير ببطء، ويخبر ركاب الطائرة أنّ بينهم خائناً يحمل سيفاً خشبياً، ويدعي بأنه سيحرر بلاده، حين يستبدل به سيفاً ذهبيّاً!

هرب وائل من نظرات عليّ ففتح عينيه، لكنَّ علياً يخرج من وجوه الركاب الصامتين، يطلُ في كلمات المضيفة، في نظرات العجوز التي أرهقته بكلامها... اقترب عليّ منه، خطواته وئيدة، ومنتظمة، تماماً كالساعة، حين يعذبها الانتظار، علي يجلس في ممر الطائرة يتربع فوق القاعدة الفارغة، يطل من النوافذ المغطاة بزجاج سميك ونظراته تبقى متعلقة بعيني وائل!

دمعة انكسار تغسل الوجه المرتعش، فيغمض عينيه هارباً، لكنّ علياً يخترق الأهداب ويجلس وسط الحدقة بغضب:

- عد وائل، لا تتحدث مع تلك العجوز عن كبرياء الموت، وأنت تزحف ذليلاً نحو حياتهم!

- أرأيت يا عليّ، أنا لم أنس نفسي كما تدعون! ولم أتغير! ظننت كلماتي ستعيد إلى عينيك وهجها المحب، أنا أحبك فلماذا تقول عني بأني خائن؟! سئمت الاتهام في عيونكم، فلا تزرعوه في عيون من حولي.. أتوسل إليك يا عليّ، عُدْ لأمي، ولا تقل لحياة بأني مت، فقلبي مازال ينبض بدمائكم، لا تملأ رأسها بكلماتك القاسية فحياة مازالت طفلة!

تمتدّ ذراعا عليّ باتجاه وائل، أصابعه تتلوى كالأخطبوط، يسير بغضب نحو الجسد المرتعش، يهرب وائل بخوف، يلتصق بالمقعد، لكنّ اليد الغاضبة لا تتوقف، بل تهدد!

الأصابع تلتصق بالعنق، الجلد ينزف عرقاً، لكنّ الأصابع ملتصقة تماماً وكأنها خلقت هكذا!

قوة تضغط بشدة على العروق النافرة، إحساس قاتل بالاختناق تملكه، حاول أن ينزع اليد القابضة على عنقه، فتلاشت قوته مع ضحكات عليّ وهو يصرخ بشماتة:

(أرأيت يا وائل، أرأيت كم تحب الحياة، وكم أنت خائف من الموت؟!)

ابتعدت اليد ببطء، ثم انفرجت الأصابع بصمت، لكنّ علياً بكى وهو ينصهر كقالب الثلج في الممر الطويل، لتشربه المقاعد الوثيرة، وترتسم على وجهها كلمات حزينة: (ما معنى أن تحافظ على بقاء أنفاس عفنة، حين يكون الموت إرادتك للحرية!)

وائل يحمي عنقه بيديه، يضغط بقوة، يحاول أن يبعد الأصابع المغروسة فيه، يلتقط أنفاسه بصعوبة، وتجحظ عيناه، كأنها ترى الموت!

العجوز نادته باضطراب، نادته مرة أخرى، لكنه لم يشعر بها، بل ازداد ضغطه على عنقه، أمسكت بيديه وهزته بعنف،

وهي تصيح بخوف: (أيها الشاب! أيها الشاب) نظر إليها عيونه محمرّة، وأنفاسه متقطعة، دموع غزيرة سالت من عينيه وهو يهرب بوجهه منها، لكنها قالت بسرعة:

- هل تعاني من أزمة؟

لم يجبها، لكنها قالت في حيرة:

- هل تتكر هذه الحالة كثيراً؟! تشعر بضيق في التنفس أليس كذلك؟!

ثم قالت كمن يحدث نفسه:

- أكره أن أرى إنساناً بهذه الحالة، فكيف يكون الحال وأنا مضطرة لإنقاذة؟!

ربتت على كتفه بحنو، ثم قالت بإصرار:

- علينا أن نخبر المضيفة بما حدث لك، لنطلب منها مساعدتنا.

خرجت كلماته مبعثرة - رغم محاولته تجميعها - حين قال بوهن:

- أنا خير.. بخير.

- كنت تموت!

نظرة غاضبة أطلت من عينيه وهو يشير إليها متهماً:

- أنت السبب!

- ماذا؟!

- لا يحلو لك الحديث إلا عن الموت، ربما يتعرض كل الذين يموتون لشخص مثلك، يذكرهم بالموت، ويعرضه عليهم، قد تكونين صورة تخفى بها الموت ليفاجئني، ربما لا أحد يراك سواي!

تطلع حوله برعب، ثم قال لها مهدداً:

- لكنني لا أخاف الموت، بل وتمنيته أكثر من مرة، كل ما يهمني الآن أن تكفي عن الكلام، أفضل الموت صامتاً!

- أنت مجنون!

الوهم والاعتذار

عمَّ الصمت، ساعة كاملة حطت بأجنحتها على المقعدين الصامتين، مزقها وائل بنوبة مزعجة من السعال، جعلتها تنظر إليه بقلق، تلك النظرة الحانية مزقت غضبه، التفت إليها، ابتسم، قال وهو يمسح وجهه بكفيه:

- أنا آسف.

- أنتَ مريض!

- بل خائف!

جمعت أجزاءه في عينيها، ورأتها معاً، دفعة واحدة، فوجدت رجلاً حزيناً، يضحك كالصغار، رغم أنه يرتجف... قالت له مبتسمة:

- أعدك ألا أتحدث عن الموت.

- عندما يسعى المرء لمعرف حقيقة الحياة، عليه ألا يتجاوز الموت، حتى لا تكون حقيقته وهماً كبيراً، يسير به نحو النهاية دون أن يعرف.

- أقترح أن نتحدث عن الحب!!

- الموت أكثر صدقاً.

- هل أحببت؟!

- الحب جريمة يعاقب مقترفها بزنزانة سوداء، لا ماء ولا نور، ولا فرصة لاجترار الذكريات، أنا ككل الأغنياء أحببت وطني جهراً، ونسيت أن العدو يسمع كلماتنا، قبل أن تصرخ في أيدينا البندقية!!

- الوطن كبير، لا يمكن لقلب أن يحتويه! لذلك نبحث عن أجزاء صغيرة نضعها في قلوبنا، ونحبها، حبنا للوطن.. هذه الأشياء تكون بنتاً حلوة، أُمّاً أرهقها الصبر، أُختاً تنتظر فجراً يكلل الزمن بغار الكبرياء، إنها أشياء نحب فيها الوطن.

ابتسم وهو يتابع كلماتها، لكنه قال لها وهو يلقي برأسه على الكرسي:

- كل الناس يعيشون في الوطن، إلا الفلسطينيين، فالوطن هو الذي يعيش فيهم، قلوبنا ليست كقلوبكم سيدتي، فالأم التي تزغرد لشهادة ولدها وهي تبكي، تملك قلباً يتسع للوطن مهما كان كبيراً!

ابتسمتِ بخجل، ثم قالت لنفسها بتأمل: (الإسلام يعلملك كيف تعيش، وفي لحظة واحدة يدفعك إلى الموت، بكل ما في الحياة من لذة!).

فاجأها بضحكة قصيرة، قال على إثرها بمرح:

- أنا لم أعرفك بنفسي!

- الأحاديث تجرنا صوب نهايات لا نستطيع توقعها، ورغم ذلك نظن أننا نحن الذين نختار أحاديثنا!

- أنا وائل عبد الرحمن الشريف، من غزة، حاصل على شهادة جامعية في الفلسفة من جامعة (بير زيت) لكنني أعيش كـأيّ عامل عربي في الأراضي المحتلة، توفي والدي وأنا في السنة الدراسية الأولى، لي أربعة أشقاء، أحدهم حُكم عليه بالسجن المؤبد، والآخر اعتقل منذ سنتين، ولم تجر له محاكمة بعد، أما الثالث، فأظنه في طريقه إلى المعتقل! رغم دعوات أمي التي لا تنقطع!

- كلكم ذكور؟

- لي أخت واحدة، أصغرنا. وهي جميلة، قلبها من ذهب، لو عرفتِ أختي لأحببتها، فهي..

- ما اسمها؟

- حياة..

- اسم جميل!!

- جَدّي هو الذي اختاره لها، ومات بعد ولاتها بسنة واحدة!

- جَدّي توفي يوم ولادتي، فقالوا: إن ذلك فأل حسن، لأنه يعني تجدد الحياة!

وانفجر ينبوع الضحك...

صغيرة على الحياة

كانوا يجلسون على الأرض العارية، ساحة البيت كانت متعبة من خطاهم... أحذية قديمة تكومت في الزاوية تبعثرت أشياؤهم في كل مكان.. كان جده نائماً في الغرفة الصغيرة، مازال يذكر كيف بناها والده وجده، أغنياته ترن في رأسه حين يطعنه الخوف فيقاوم ويضحك.. دمعة سقطت من عينيه، فامتصها المقعد..

حُزّن وذكريات تزجي الخوف، تجمعه ركاماً في أفق الذاكرة، نبضاً يمنح الحياة صامتاً، ويغذي العروق رغم جوعه!

جَدّه يجلس في ساحة الدار، الغبار يرسم الأشكال بألوان باهتة، يظهرها عتيقة كثياب جَدّه الحزين، طالما سأل أمه عن الحزن في عيني جَدّه، لكنّ أمه كانت تقول دائماً، وهي تشمُر عن ساعديه لتعجن العجين الأسمر: (وماذا تمنح السنين غير الحزن!).

كان الجميع يجلسون في الساحة (عامر ، حذيفة، وائل، علي) أمهم كانت تقف وحيدة بباب المطبخ، تتحسس بطنها بخوف، وتختلس النظر لأولادها...

اقترب وائل منها، نظر إليها، التسعة أعوام التي حملها على كتفيه الصغيرتين، فشلت في اكتشاف خوفها، لكنه سمع والده وهو يقول لها ضاحكاً: (يارب بنت!).

حمل وائل الكلمات كالأجنحة إلى جَدّه، لكنها لم تمنحه غير ابتسامة حائرة، سرعان ما عقرها الحزن فتلاشت.

- ولكني أساعد أمي في كل شيء فلماذا تريد بنتاً؟!

- أنتم بحاجة إلى أخت صغير تعتني بكم.

- ولكننا كبار، ولا نريدها.. غداً تجبرنا أمي على حملها، كما كانت تفعل مع عليّ، ومهما كبر عليّ بقينا أكبر منه، فلم نتخلص من شقاوته!!

- لا تخف يا وائل، البنات يكبرن بسرعة، ولا يحتجن سوى الكلمات!

كانت الكلمات أكبر من غضبه، فأدهشته، هذه ليست أول مرة لا يفهم فيها جَدّه، لكنه أحسَّ بأن جده يائسٌ ككل الكبار الذين يجتمع بهم في المسجد!

بطن أمه بدأت تكبر، ويكبر معها الدعاء (يا رب بنت!) حتى إنه ضبط حذيفة يدعو اللّه أن يستجيب لأمه.. وائل وحده كرهها قبل أن تصير حقيقة!

الميلاد

السماء مكفهرة، مطر يضرب الأرض غاضباً، وبريق يضيء السماء فجأة، ويختفي خلف الغيوم.. صراخ أمه جعله يبكي، وهو يتابع النساء يحملن الماء الساخن من المطبخ إلى الغرفة، قطرات الماء الساقطة من الإناء النحاسي رسمت خطاً طويلاً متعرجاً على الأرض الجامفة، ظلّ وائل يتأمله بخوف..

بكاء صارخ اقتحم مسامعه وهو متكئ على كتف شقيقه الأكبر عامر، جعله يجفل، بينما ابتسم عامر بارتياح..

(بنت! بنت! بنت) ملأت الكلمة البيت، حتى صار يجدها في وعاء الخبز وفوق مخدته، حتى عيون جَدّه كانت تنطقها بحب يغيظه!

قالت أمه وهي تحملها فير مصدقة:

- بنت يا أبا عامر! بنت!

- الحمد للّه على سلامتك.

- وسلامتها!

كانت أمه سعيدة كما لم تكن كذلك من قبل، ابتسامتها هزمت ارتعاشات جسدها المتعب، فبدت أصغر مما عليه،

أعوام كثيرة تسابقت إلى الخلف حين قبلتها، وتناثرت على خدودها الدموع!

اقترب حذيفة من الطفلة، تحسس وجهها بأصابعه، فنهره والده، ضحكة شقية انطلقت من جوف عامر بشماتة، ركض عليّ باتجاه أمه يبكي، حاول الجميع أن يتجاوزوا بكاءه، لكنه سرعان ما ملأ الغرفة بصراخه، وهو يركل الأشياء بقدميه.

نظرة حادة، من طرف العين، تجاوزت الأهداب في ثقة، والتصقت بوجه وائل الذي وقف بالباب، يراقب الجميع، وعلى وجهه إطلالة حزن وغيظ!

لم يقل جَدّه شيئاً بل أشار إليه بالعصا أن يدخل، أشاح وائل بوجهه كي لا يراه، فأحس بالعصا تطال كتفه، وتؤلمها، نظر إلى جده بعتاب، فحاصرته ابتسامة طيبة، جعلته يتقدم بصمت:

- انظر كم هي جميلة يا وائل!

لم يرفع رأسه، ولم ينظر إليها، بل تطلع إلى أمه بقلق، وقال لها بصوت هامس:

- أنا جائع!

ضحكة خبيثة نشرت مرحاً في الغرفة المعتمة إلا من (مصباح الكاز) الذي وضع بحذر فوق سرير الأم، لم يكن المرح قد فارق ضحكة عامر، حين قالت له أمه، وهي تشير إلى المطبخ:

- أطعم أخاك ياعامر.

- لماذا لا يأكل وحده!

جاء صوت والده حازماً، لا يخلو من عاطفة:

- أمك متعبة. نفذ ما قالته لك ولا تجادلها.

أمسك عامر بيده، شدّها بعنف، وهو يهمس بغيظ: (ألا تستطيع أن تنتظر حتى تعود خالتي، فتجهز لنا جميعاً.. ماذا أفعل بك الآن؟!).

وانتشر الصراخ أدهش عامراً، قبل أن يدهشهم، صياح ألم خرج من جوف وائل، وهو يكرر بطريقة هستيرية:

- لقد ضربني يا أمي ضربني، لا أريد أن آكل!

صاحت الأم بضيق:

- عامر!

لكنّ الدهشة لم تفارق وجه عامر، الذي رفع يديه ملوِّحاً بهما، وهو يقول لجَدّه مؤكداً: (صدقني يا جَدّي، لم ألمسه!).

الصغير والحب

عندما يصبح المكان عدداً لا نهاية له من الأجزاء الصغيرة، يفقد قدرته على تجميع نفسه.. هكذا كانت طفولته في غزة، في عيونه التي فارقها الحلم، على ألا يعود!

لم تكن الأسماء تثير اهتمامه، ربما لأنها رغم اختلافها، تحمل الملامح نفسها، وجوه حزينة، والأمل أكبر من ذكرياتهم القريبة، والأمل كالشمس لا يصلهم منه سوى الشعاع!!

حاول الجميع أن يتجاهل الطفلة القادمة من الحلم، إلا أن بكاءها المتواصل لم يمكنهم من ذلك، وائل وحده كان يدخل الغرفة كاللص، يضربها، يعضها أحياناً، ويهرب إلى جَدّه طالباً الحماية من شيء في داخله يحاربه!

حملتها أمه وخرجت بها إلى الساحة، جنون أطبق على رأسه، وهو يراها تحتل مملكته، يمكن لهذه الطفلة أن تختطف منه أيّ شيء، إلا الساحة!

قالت أمه وهي تداعبها:

- ماذا سنسميها يا أبا عامر؟

- لن أسميها حتى تبلغ الأربعين.

- غداً تتمها!

- غداً نتحدث باسمها إذن.

صاح حذيفة من بعيد:

- سمُوها فرح.

فأجاب والده بسرعة:

- بل رابعة، سنسميها رابعة.

أومأت أمه برأسها، حزن غامر اجتاح ملامحها، وهي تقول:

- ولكن الثلاث اللواتي سبقنها، مِتّن!

فقال جَدّه بحماسة:

- نسميها حياة إذن:

ولم تمض سوى بضعة شهور، حتى كان اسمها، أكثر الأشياء لمعاناً في البيت، ضحكتها أجمل الأشياء، ووجها نورٌ حتى وائل لم يستطع أن يمنع نفسه عن تقبيلها حين ابتسمت له، وبعدها بأسبوع واحد لم يكن أحد يجرؤ على حملها، دون الرجوع إليه!

كانوا يتناولون طعامهم في الساحة المكشوفة للسماء وللهواء الساخن القادم من حزن البحر، يجلسون على الأرض محيطين بطبق كبير من الأرز، توزعت على صفحته قطع اللحم الصغيرة، وما هي إلا لحظات قصيرة من الانتظار حتى كان

أمام كلّ واحد منهم قطعة تخصه وحده دون غيره.

كان وائل يجلس قرب جَدّه دائماً، وكان جَدّه يدفع بقطعته، لتقترت من قطعة وائل ثم ينظر إليه ويبتسم وهو يقول هامساً: (لا تقل لإخوتك حتى لا يكتشفوا أنك صاحبي!).

بكاء حاد انطلق من الداخل، قفز وائل بسرعة، ليحضر حياة إلى أمه، لكنّ حذيفة كان الأقرب إلى الباب فسبقه وأحضرها.

نظر وائل لحذيفة بغضب، الإحساس بالعجز لم يكن يرضيه، وخوفه أن تحب حياة أحداً أكثر منه جعله يصرخ باكياً: (لقد استبدل حذيفة قطعتي بقطعته المأكولة، لقد أخذها مني يا أمي!) وسالت دموعه غزيرة على خديه، وهو يشير إلى قطعة اللحم التي أمام حذيفة.

كلّ محاولات حذيفة للدفاع عن نفسه فشلت أمام دموع وائل وصراخه، فتخلى عن حصته من اللحم، واكتفى بالكثير من الأرز!

شعر وائل بالسعادة، وهو يرى حذيفة مغلوباً على أمره، لكنه سرعان ما استسلم لذلك الشعور القاتل الذي يجعل من نظرات جَدّه سكاكين تغرس في ظهره، نظر إلى قطعة اللحم التي انتزعها من حذيفة، أحسها جمراً يقترب من جوفه، حزناً يهاجمه كلما تطلع لأخيه ويعتصره!

(لا يمكن التراجع، حذيفة يستحق ما حدث له، لن أسمح

لهم بجعلها تحبهم أكثر مني!).

كلمات قالها لنفسه، وهو يمنح حصة حذيفة من اللحم لعليّ. محاولة للتكفير عن ذنب لا يمكن التراجع عنه!

الطفولة واليهود

الوقت عند الظهيرة، والشمس ملكة لا غيوم تحاربها، يمس يد جَدّه، ويسير معه صوب المسجد الكبير.

- لماذا لا تصلي في البيت يا جَدّي؟

- إنّ كنت متعباً.. يمكنك أن تعود!

- ولكني أخشى عليك من اليهود.

- وهل ستحميني؟!

- أنا أحبك يا جَدّي، ولن أسمح لهم بإيذائك.. ربما أكون صغيراً، وكني قوي، لقد صرعت حذيفة، ولم يستطع أن يهزمني.

ضحك جَدّه بفرح ثم قال وهو يربت على كتفه:

- عندما تقاتل حذيفة، تكون في عينيه (وائلاً الصغير)، ولكنك حين تقاتل اليهود، فأنت فلسطيني مخرِّب، الأول يسعده أن تكون قوياً، الثاني يسعده أن يقتلك!

- لماذا يكرهنا اليهود يا جَدّي؟

- ربما الخوف!

- منا؟!

- بل من ضعفهم، اليهود جبناء يا وائل، لا تخف منهم أبداً، ولا تسمح لهم بالسخرية منك، غداً يُطردون من بلادنا، وستعود حُرّة كما كانت.

- مَنْ سيطردهم؟

- نحن.

- متى؟!

- مَنْ يدري؟! ربما قريباً

- لماذا عليهم أن يكرهونا، ولماذا علينا أن نقاتلهم، لماذا لا نعيش معاً كما نفعل مع النصارى؟!

- أنت تكبر بسرعة! وبدأت مثلهم تحب الحياة!

- حاييم يريد أن يصبح صديقي، لقد أعطاني هذا.

وأخرج زراً ذهبياً من جيبه، ووضعه في يد جَدّه، أمسك جَدّه الزر، تفحصه جيداً، ثم نظر إلى وائل، وهو يقول معاتباً:

- ظننتك تساوي أكثر من هذا!

النظرة الحائرة في عيني وائل، جعلت جَدّه يجلس على الرصيف، يضع عصاه بقربه بهدوء، يخرج كيس التبغ، ويلف سيجارة، بينما تسمّر وائل في مكانه، والدهشة تكاد تأكله، قال جَدّه وهو يبلل طرف السيجارة بلسانه، قبل أن يثبتها بين شفتيه:

- ماذا ستفعل لو بدأك حاييم بالعداء، ماذا ستقول له لو

ضـربك مـاذا لـو مـددت لـه يدك لتلعب مـعـه، وعـرضت عليـه صداقتك، فرفض، فعدت تطلب وده فضربك، وحين تعرض عليه أن يعيش كل منكما بسلام بعيداً عن الآخر، دون صداقة بينكما أو عداء، يخطف لعبتك، ويرفسك بعيداً، لأنك رضيت لنفسك أن تصاحب عقرباً، لن يفيده موتك، لكنه سيحرره من خوفه.

- حاييم يبدو طيباً يا جَدّي.

- لا تأمن شر عدوك.

- ولكنه يحبني.

- لا تصدقك نفسك، غداً يكبر حاييم ويرتدي بِزّة عسكرية، وسيطلق عليك النار، إن قلت له: (اخرج من بيتي).

بكى وائل، قال لجَدّه إنه لا يريد أن يكره حاييم، نهضَ جَدّه بتثاقل، ثم قال له بحزم:

- قد تحبه يا وائل، ولكنْ تذَكّر أنه لا يمكنه أن يحبك! فهو يرى والده الذي يجرّ والدك إلى المعتقل بطلاً، وسيقول بأن عمك الشهيد ليس سوى مخرِّب! عليك أن تتذكر ائماً أنهم أعداؤنا، وأن أرجلهم فوق رؤوسنا وعلى أرضنا.

بدا الجَدُّ وكأنه يحدِّث نفسه، حين غارت عينا وائل في وجهه بحيرة، كانت الكلمات كبيرة، لم يفهمها! لكنها بقيت محفورة في ذاكرته حتى كبر!

لا يشبه أحداً

أمه تصيح بغضب، بينما ينتشر بكاء حياة كذرات الغبار في أسماعهم، يعلو صوت أمه مهدداً:

- توقف عن العبث بأشياء جَدّك يا وائل!

فأتاها صوته من بعيد:

- لا تخافي! سأعيد كل شيء إلى مكانه.

- عمَّ تبحث؟!

- عن جَدّي، أقصد عن غليون جَدّي!

واستمر بالبحث، إلى أن فاجأه جَدّه بضربة خفيفة على مؤخرته:

- أيها اللص!

- لم أسرق شيئاً، جئت لأسترد الزر الذي أخذته مني.

- تعني ذلك الزر الذهبي؟!

فأجابه بلهفة:

- أجل! هل هو معك يا جَدّي؟!

- إلى هذا الحد يهمك أن تحتفظ به؟!

- يهمني أن أجده.

أشاح جَدَّه بوجهه عنه، وابتعد قليلاً، فقال وائل بانكسار:

- تشاجرت مع حاييم، فضربته! قال بأني كلب، وبأنه سيلقي بي في البحر كالنفايات.

التفت إليه جَدّه، اقترب منه، نظر إليه، ثم صفعه بقوة أردته أرضاً، سال دمه من أنفه، لكنه لم يبك، بل قال بإصرار: (لا يمكن أن يكون حاييم صديقي!).

تدخلت الأم بفزع، نظرت للجَدّ غير مصدِّقة، بينما أخذ حذيفة وائلاً بعيداً، وشرع يمسح دمه، وهو يراقب جَدّه من بعيد، والغضب يهزّ عظامه رغم الدهشة!

سألت الأم وهي تضرب على كتف حياة بكفها، تتوقف عن البكاء، بينما ترتعش كل خلية في جسدها بخوف:

- هل سرق شيئاً؟!

- وائل ليس لصاً.

- لماذا تضربه إذن؟! إنه طفل.. لا يمكنك أن تقسو عليه هكذا، وأنت تعلم كم يحبك، وأنه من دون أولادي لا يفارقك!!

- عليه أن يكون رجلاً!

- قل هذا لعامر، لحذيفة، أمّا أن تترك الكبار، وتطلب من هذا الصغير أن يصبح رجلاً، أمر لا يقبله عقله!

- لم أجن بعد يا أم عامر، ولم أُصب بالخرف!

أحست أمه بحجم غضبها، فتوقفت، هربت بعينيها من حزن العجوز، ثم قالت بارتباك:

- أنت جَدّه يا عمي، وتحكم على رأسه، ولكني فزعت حين رأيت الدم يسيل منه، إنه طفل، ليتك تعامله على أنه كذلك.

نظر جَدّه إليه، التقت نظراتهما، اقترب وائل من جَدّه، أحاطه بذراعيه، وبكى.. التفت جَدّه لأمه، ثم قال متنهداً:

- أستطيع أن أثق بعامر، حذيفة لا يخيفني، وائل وحده يحاصرني، ويجبرني على أن أكون رجلاً آخر لا أحبه!!

- هذا الطفل!

- إنه كثير الجدل، يُصرُّ على رؤية اللّه، ويظن أن اليهود يمكن أن يكونوا أصدقاء، لا يريد بنتاً في البيت، وحين تأتي يريدها له وحده.. أرأيتِ كم هو مخيف هذا الصغير!

نظر إليه بإشفاق، ثم أكمل بحيرة:

- وكم أحبه!

دفعت أمه بحياة إلى حذيفة، ثم اختطفت وائلاً بيدين مرتعشتين، وقالت بغضب:

- حتى وإن كان الشيطان! يظل ولدي، ولدي الذي لم يتجاوز العاشرة!

اقترب حذيفة من جَدّه، وسأله بارتباك:

- ماذا فعل وائل يا جَدّي؟

رفع جَدّه الزر الذهبي، وقال بصوت مرتفع:

- وائل يظن أن هذا الزر من حق ذلك اليهودي!

عاد وائل راكضاً، وقف بالباب، فنظر إليه جَدّه بعتاب:

- قبل أن نفكر بإعادة هذا الزر لذلك الذي سيُلقي بك في البحر كالنفايات، فكّر باستعادة حقك منه.. أرجع أرضك، بحرك، سماءك!

- لن أكون صديقاً لأيّ يهودي، أعدك.. فقط لا تغضب، أنا أحبك يا جَدّي!

- أنا أيضاً أحبك، ولكن أريدك أن تكون رجلاً كأبيك!

ذات يوم

سنة واحدة ليست بالكثير، ولكنها رغم سرعتها بدت سحاباً راكداً، لا يمكن لشمس أن تخترقه، حاول جَدّه مراراً أن يخبره بأن الحياة كالمواسم تنتهي، لكنه لم يفهم!

قال له: إن الموت امتداد لشيء نعيش حياتنا نبحث عنه، ابتسم بسذاجة، وربما ضحك وهو يراقب الدخان يخرج من أنف جَدّه المُتعب، لكنه لم يفهم!

كان جَدّه قوياً، مارداً، لا يعرف السقوط أو التراجع، بنادق الجنود لم تكن تخيفه.. كلما أحس وائل بالخوف، كان يتذكر جَدّه ليقاوم!

عليّ مريض، يكاد لا يلتقط أنفاسه، أمه تجبره على اصطحابه إلى الطبيب ليعطيه الإبرة، ووائل يكره أن يُجبر على فعل أيّ شيء، حتى اللعب!

ما كاد يخرج من البيت، حتى بدأ بمضايقة عليّ، تارة بالضرب، وتارة بقرص الجلد.. وعليّ يملأ الشارع بالصراخ والبكاء، دون أن يأبه له أحد.. رفيق كهذا لا يمكن للمرء أن يصطحبه ثانية!

كان عليّ ينفجر بالبكاء، حين يسمع أن وائلاً سيصطحبه إلى الطبيب، بل وكان يرفض أن يتقدم خُطوة واحدة، إلا إذا اختاروا له رفيقاً آخر، لا يتقن فنون التعذيب كوائل!

كان الصباح صيفيَّ الأنفاس، الشمس تلفح الوجوه دون رحمة، والصغار في شوق إلى الاحتراق مع لهب الإسفلت، صراخهم يملأ الشارع الضيق، ليضج بالفوضى المكان.

حاول وائل أن يتجاهل ضحكات رفاقه، مسح صورهم من ذهنه، وهو يراقب جَدّه يسحب أنفاسه من الغرفة بصعوبة، لكن كلماته المكشوفة، وملامح الارتباك في وجهه، جعلت جَدّه، يبذل جهداً كبيراً، ليشير إليه بالذهاب:

- ولكني أُريد أن أبقى معك يا جَدّي، قد تحتاج للمساعدة.

ابتسم الجَدُّ، تنفّس بعمق، ثم قال بصوت مبحوح:

- عندما تكون سعيداً لا تفكر في الحزن، لأنه يأتي عادة دون دعوة!

- لا تتكلم يا جَدّي، أشر إليَّ بيدك، وسأفهمك.

- لا يهمني أن تفهمني الآن، عليك فقط أن تحفظ الكلمات، لتقولها لنفسك حين تكبر.

- ولماذا لا تقولها أنت؟!

- لأن الكلمات تبقى، حين يغيب الرجال.. رسالة اللّه الباقية

لم تكن غير الكلمات يا وائل.. اقرأ كتاب اللّه، عدني ألا تهجر كتاب اللّه يا ولدي.

- ياجدّي.. لماا تقول هذا؟!

- سأموت يا وائل.

- أنت دائماً تقول ذلك حين تصاب بالمرض، وتتراجع عن كل كلماتك، حين تنهض من الفراش.

نظر إليه جَدّه، ثم قال له بحنو بالغ:

- رغم أنك لست حفيدي الوحيد، إلا أني لم أحب أحداً مثلك يا وائل، ربما لأنك تشبه عمك محمداً.

- هل سأكون شهيداً مثله؟!

- مَنْ يَدْري؟! مَنْ يَدْري؟!

أحسَّ بخدر في يديه، فأشار لوائل أن يقترب، وما كاد وائل يفعل، حتى علا صوت ابن عمه زياد منادياً، فأشار إليه جَدّه بالذهاب، وقبل أن تعود اليد إلى الأرض كان وائل يركض مع زياد بعيداً عن البيت، حيث يمكنه أن يمارس حقه في فعل ما يشاء، بعيداً عن عصا جَدّه.. ونصائح أُمه!

ظن وائل أن ذلك الصباح لا يختلف كثيراً عن غيره، هذه ليست أوّل مرة يظن فيها الجميع أن جَدّه سيموت، فلماذا القلق؟! وفي كل مرة.. لا يموت!

السماء كعادتها، تحتفظ بكامل بريقها عند الظهيرة، تُجبر الصغار على العودة إلى الجدران، حين يمكنهم أن يحجبوا رؤوسهم من عناد الشمس.

وائل كغيره عاد إلى البيت، صمت وضباب يغطي العيون، دموع أمه بللت نظراته، وهو يركض باتجاه الغرفة الصغيرة، لا يوجد متسع لزائر آخر، الجميع يحيطون بجَدِّه الصامت رغم الدموع، يرتفع صدره وينخفض في محاولة يائسة لإثبات الحياة... رفع يده، نظر إلى وائل، حاول أن يبتسم، وأشار إليه أن يقترب.

حاول الجميع أن يفسحوا له الطريق، لم يصل إلى جده من جسده سوى يده، فأمسكها وقرّبها من فمه، وقبّلها، صاح وائل بحُرقة:

- جدّي لا تمت! لديك الكثير لتقوله لي... جدَّي..

وتوقف الصدر عن خداعهم، لتخترق الصمت صرخة مدوية، اقتلعت من العيون نشيجاً، لا يصنعه غير الموت!

الحزن والحزن

العجوز ما زالت تنتظر كلمات وائل، الذي رحل بعيداً صوب ذكرياته، تراقبه يُقرِّب يده من صدره بحزن شديد، ويقول هامساً بحزن: (كيف ليد تحمل مثل تلك القبلة، أن تصافح سالماً الفتوح؟!).

نظرت إليه باستغراب، ثم قالت تتبهه:

- سالم الفتوح! هل هو صديق لك؟!

التفت إليها بدهشة، ظلّ ينظر إليها بذهول، أبعد عينيه عنها، ثم قال - يقاوم دمعة كسيرة في عينيه:

- إنه رجل يكره نفسه، ولا يمكنه أن يكون صديقاً لغير عدوه!

- لم تحدثني عن جَدَّك!

- جَدّي؟!

صمت قليلاً، ثم قال بارتياح:

- كان رجلاً... كان رجلاً فلسطينياً! يحب القدس، ويحبني.. لم أرَ في حياتي رجلاً مؤمناً بالله، وموقناً بالانتصار كجَدَّي!

- أنت من المقاومة الفلسطينية إذن.

- يسمونه عندنا (الجهاد)!

ضحكتْ، وقالت ببساطة طفلة:

- أنت تحيرني! تتحدث عن بلادك كمقاتل، وتهرب منها، حين تطلب المقاتلين!!

التفت إليها بغضب، ثم قال مهاجماً:

- ماذا تعرفين أنت عن بلادي؟ بل وما الذي أتى بكِ إلى إسرائيل؟!

- ظننتك تسميها (فلسطين)!

- لا شأن لك بي، لست سوى عجوز تبحث عن..

وقاطعته فجأة، وبهدوء أدهشه، وأسكته:

- أنا أؤمن بأنكم على حق، أريد أن يعرف الجميع هذه الحقيقة، لهذا أتيت.

فأجابها بسخرية:

- لم يرحب بك سوى الإسرائيليين.

- أمضيت معظم الوقت في بيوت الفلسطينيين.

- أنتم تحبون الإثارة، أنا واثق من أنك حصلت على الكثير من الصور الفوتوغرافية.

- بالتأكيد، لن يلتفت الناس إلى الكتاب الذي أعده عن حقيقة الوضع في فلسطين، بدون صور وثائقية!

- هذا ما كان ينقصني.. كاتبة!

- لقد فكرت في ذلك طويلاً، ولكنها التجربة الأولى، فلا تسخر مني.

- أنتم لا تحبون القراءة عنّا، إنكم تحبون مشاهدتنا فقط، لذلك نحتل متاحفكم في كل مكان.. إننا دمى لا تقدر على الحركة!

حدّقت في ملامحه بحيرة ثم قالت مستسلمة:

- مازلت تثير دهشتي!

- متشائم، أليس كذلك؟!

- بل غاضب، ومن نفسك فقط!

نظر إليها بسخرية، ثم قال متهكماً:

- الغضب يمنح القوة للتغيير، فأيّ شيء يصنعه حزنك، وأنت تراقبين الصغار يقاومون بصدورهم العارية من الخوف، العامرة بالحب، رصاصاً لا يتقن غير خمد الأنفاس الساخنة!

- وأيّ تغيير يمكن أن يحدثه هروبك؟

- ماذا تعنين بهروبي؟! وماذا تعرفين عني لتقولي ذلك؟!

- أنت تترك الانتفاضة! وأنت تعلم أنها بركان وقوة أنفاس الواقفين بحجارتهم، يطالبون بالحرية، وهم يعلمون أن حجارتهم لا تعطيهم أكثر من الموت الكريم! أنت تهرب بأنفاسك عنهم، وهذا يضعفهم!!

أبعدت وجهها عنه، ثم أكملت بحزن:

- عندما تركني أولادي، كانو يحملون في عيونهم وهجاً غريباً، أخافني، كبل عيني بالصمت، هذا الوهج يطل من عينيك بين لحظة وأخرى، ما إن ينطفئ حتى يلمع في عينيك من جديد.. لا بدّ أن أمك حزينة، كيف تتركها للموت وتهرب بحياتك؟!

- عندما تستقر حياتي في نيويورك، سآتي بأمي، ستعيش معي، وسأحقق كل أحلامها.. لن تقاوم عيناها الدموع بعد اليوم، الفرح لن يخذلها، لن تشعر بالجوع، صدقيني.. سنعيش حياة رائعة، لا موت، لا رصاص ولا مزيد من الذكريات المؤلمة!

- عندما تخلع النبتة من أرضها تموت!

- سأزرعها في تربة جيدة، وستزهر بإرادة الحياة!

- أنت تحارب الطبيعة. تخالف إرادة الرب!

- وهل يرضى الرب أن نموَت؟ أيرضيه أن ننظر لأطفالنا وهم يقصفون كالأعواد الجافة؟ يقاومون بكلماتهم الصغيرة هذا الزحف العارم من الخيانة؟!

- وتدافع عنهم بأن تخونهم؟!

- ربما أعود لوطني قوياً!!

- هل سيسمح لك خصمك أن تصبح قوياً؟ وماذا عن وطنك؟! إلى متى تظنه سينتظر؟ هل تعلم أن الفلسطينيين لو

فكروا بضعفهم لحظة واحدة لما كانت الانتفاضة، ولبقي اليهود أقـويـاء بصـمـتكم لبـقـيـتم ضـعـفـاء بوهم انتظار القـوة.. الفلسطينيون أقوياء بحقهم! بإيمانهم! ولا أظنهم سينتظرونك.

القلب الضعيف

ها هو عليّ يقفز من عينيها، ويجثم على صدره بغضب، نظر وائل إلى العجوز بذهول ابتعد بوجهه، لكن عليّاً اخترقه، ووقف بين أصابعه.. صراخ حاد، نيران اشتعلت حوله، وهو يحاول الهرب من عليّ، لكنّ دون جدوى، نفض عليّ عن رأسه غبار التردد وهو يضغط على كف وائل ليسحقها، صاحت أصابع وائل بألم:

- اقتلني يا عليّ.. اقتل ذلك الشيء الذي يعذبني، قد لا أكون على حق، ولكني لست خائناً كما تدعون، قل لها إني ذاهب لأعيش مع قلبي الضعيف، بعيداً عن دموع أمي، أنا لم أسقط، لم أبع وطني.. ولكني ضعيف! لم أعد قادراً عل فعل أيّ شيء! جبن هي فرصتي الوحيدة للحياة.. معكم سأموت ألف مرة، قبل أن يطالني رصاصهم، جسدي لن يحتمل المزيد من الألم، وروحي أكلها اليأس، فما عادت قادرة على عنف المقاومة!

- الورقة الأخيرة بيدك.. يمكن؛ أن تعود.

- أعود لمن؟!

- لنا.

- بأيّ شيء؟!

- بإرادة الجهاد!

- ستخذلني دقات القلب اللعين، وستهرب أنفاسي مني رغماً عني، جسدي سيهزمني يا عليّ، فما معنى المقاومة، وأنا واثق أني الخاسر في لعبة الإرادة؟!

- الانتفاضة كلمة، رصاصة، حجر، نظرة حاقدة، وأمل واثق بالنصر! اختر ما تشاء وقاوم!

- أنت تجعل من المقاتل شاعراً تنقصه الكلمات! صدقني يا أخي.. صدقني! المال الذي سأجمعه هو قوتي التي أبحث عنها حين تحبني، وستعمل على إسعادي، ستعرضني على أشهر الأطباء، وستمنحني الحياة!

- اللّه وحده الذي يمنح الحياة..

جحظت عينا عليّ بغضب، وهو يلوّح بيده مهدداً:

- والموت!

- عندما أعود ستعلمون كم كنتم على خطأ.

- لن ينتظرك أحد.. أتدري لماذا؟ لأنك عندما تعود إليهم لن تكون أنت، ستكون شخصاً آخر لا يقدر أن يقدم لهم الدولارات، بينما هم بحاجة لدمك!

- لا تكرهني يا عليّ!

نظرة إشفاق تطل من عيني عليّ لأول مرة، وتذوب حزناً في دموع وائل، قال عليّ وهو يتلاشى في فضاء المكان بحزن:

- أيها المسكين! بدأت تكره نفسك!

أوّل مرة

مـسح وائل دمـوعـه بكمـه، وهو يتـابع خـوفـه، التـفت إلى العجوز، ثم قال لها بالإنجليزية:

- اللعنة!

نظرت إليـه باسـتـخـفـاف، ثم أخـرجت من حـقيـبـتـهـا بعض المجلات، وبدأت تتفحصها بصمت.

بدا مـرتاحـاً للنتيـجـة، وهو يراقـبـهـا بطرف عينيـه منهـمكة في القراءة، ولكنه سرعان ما أحسّ بالملل وهو يراجع ذكرياته الحزينة.

نظر إليها، حدّق في وجهها، لكنها لم تعره أيّ اهتمام، قال لنفسه وهو يلقي رأسه على المقعد: « ربما عليَّ أن أبحث عن نجمة!).

وسـرعـان مـا كـانت جين تقـتـحم مـخيلتـه بشـعـرهـا الأشـقـر، ونظراتها المرحة ابتسم.. وعاد إلى الشارع المرصوف بالغضب، حيث رأى جين لأول مرة!

كانت الشـمس تسـحب خيـوطهـا من جسـد الأرض السـاخن، أيلول بكل جنونه كـان يبكي في عـيـون الصـغـار، وهم يحـملون مـصـاحـفـهم الصـغـيـرة. ويرفـعونهـا عـاليـاً، كـانت كلمـاتهم تشق

الأفق دون خوف: (فلسطين عربية! فلسطين عربية) لتهتز في عيون الواقفين على الشرفات الصامتة أهازيج (اللّه أكبر!).

بدا نهار ذلك اليوم أكثر هدوءاً من غيره، ورغم ذلك لم تهدأ دوريات العدو الإسرائيلي، بل نشطت، وأخذ تمشط الطرقات بحثاً عن الأيدي الصغيرة، كان الخوف يأكلها، يعريها من أوهام القوة، فتظهر في العيون الرافضة أجساماً بلا معنى!

كان وائل يجلس - كعادته - على الأرض المعبدة بالفوضى، تتخبطه الحيرة، ويكاد يقتله الغيظ! يراقب الجميع، ورغم أنه لا يرى أحداً، ستار من الخيبة غطى عينيه وهو يتابع خيوط الشمس تعود بحسرة إلى سجنها!

ضوء (كاميرا) لمع في عينيه فجأة، واطفأ، نظر أمامه بدهشة، وجه جميل، تتدفق الحياة في تفاصيلة الدقيقة، وشعر نسجته الشمس على رأسها، قبل أن ترحل!

حدّق في وجهها، توقف في عينيها، فأحسَّ بأمواجها متلاطمة رغم صمتها..

ابتسمت.. رفعت الكاميرا بيدها، وقالت بمرح:

- شكراً.

لم تدهشه الطريقة التي لفظت بها الكلمة العربية، وإنما أضحكه أن تقوم بتصويره، رغم أنه جالس على الأرض

بصمت، لا يحمل حجراً، ولا يصرخ في الشوارع كغيره، وسرعان ما انفجر بالضحك، حين قال لنفسه مفكراً: (قد تكون صحفيه يهودية، تريد أن تقول للناس أن الانتفاضة لا ترضي كلّ الفلسطينيين!).

نهض بتثاقل سار بضع خطوات، فأحسّ بعينها تراقبه من بعيد.. كانت تقف مع يهودي من المستوطنين، يحمل سلاحه محتمياً بعدد من الجنود.

دقائق سريعة، كوميض البرق مرت، لتترك ضجيجها في أسماع الواقفين، رصاص مطاطي انتشر كالغبار، كان يعرف هدفه جيداً، كان واثقاً من طريقه، صوب الكلمة الغاضبة! حجارة صغيرة، لكنها موجعة ومخيفة!

اتسعت عينا جين، لم تصدق ما تراه، أيمكن أن تتحول رحلة العمل التي فرحت بها إلى ذكرى مؤلمة، لا تمنحها غير الخوف! نظرت لرفيقها، كان يشهر سلاحه، متأهباً كقط، رغم يقينها أنه يرتعش!

عادت بنظراتها إلى الصغار، فوضى تملأ المكان، صراخ لكمات عربية لم تفهمها ورصاص قاتل يجيب الكلمات.. سيارة (جيب) حملت جنديين، سارت باندفاع شديد، طفلان وقفا في الشارع، التقط أحدهما حجراً، بينما دفع آخر بقدمه قنبلة مسيلة للدموع..

اقتربت السيارة، الجنديان ينظران للصغيرين، اقتربت أكثر، لحظة وتتحطم العظام الغضّة، وتسحقها (العجلات) بمنتهى القسوة! حاول الصغيران أن يهربا، تبعتهما السيارة وصارا فريسة سهلة بين السيارة والجدار المُهدَّم!

صاحت جين غير مصدقة: (لا .. لا) وركضت باتجاه الصغيرين.

لحظة واحدة، قصيرة! سريعة! لكنها كالشعرة تفصل بين الموت والحياة! وقف الصغيران بذهول، دم يسيل على الإسفلت، وحجارة حمراء يلتقطها الصغار، جسد ممد على الأرض بلا حراك، وصرخة ألم تاهت بين الأصوات!

اشتدت الاشتبكات، الحجارة زادت غضباً، حتى استحالت بركاناً ثائراً!

بدا الرعب جليّاً في ملامح وحركات الجنود، بينما كانت ساقا ذلك المستوطن تسابق الريح خلف السلاح المرتعش.

من وسط الفوضى المميتة اقترب منها، سحبها بقوة، دفعه أحد الجنود بسلاحه، لكنه استطاع أن يفلت بها، حين انهالت الحجارة على الجنود من نوافذ البيوت وسطوحها .. إطلاق حيّ للنيران، ومصابون يُحمَّلون بسيارات الجيش الإسرائيلي إلى المعتقل، بدل المشفى!

أطفال رسمت الدماء على ملابسهم صوراً غاضبة، ثائرة،

رغم أنها حزينة! دخل وائل أحد البيوت الفلسطينية، بعد أن دفع الباب بجسده، فانكسر المزلاج المهترئ بصدأ السنين، امرأة في الأربعين، صاحت بترقب: (يا ساتر!) ثم تبعتها العيون الصغيرة بتساؤل، بينما خرج من بينهم شاب صاح بلهفة:

- هاتِ منديلك يا أمي، إنها تنزف!

وبسرعة ضمدوا أكثر إصاباتها خطورة، لكنّ الخوف من مداهمة الجيش الإسرائيلي ظلّ يرافقهم، قال الشاب بقلق، وهو ينظر إليها مستغرباً:

- علينا أن ننقلها إلى المشفى فوراً، أهي فلسطينية؟!

- أجنبية، ولكنها أنقذت طفلين من دورية إسرائيلية، وهذا هو الثمن!

- هذا يجعل الأمر أكثر سهولة.

بداية الطريق

تسابقت الصور، حتى اختلطت في عيني جين، وهي تحاول أن تفتحهما، ألم شديد في الرأس، تماماً فوق العينين، امتدّ ليتركز خلف الرأس، ويشدّ الأذنين بعنف، أنّات من الألم، كانت تسير في جوفها بطيئة، لتخرج صوتاً مبحوحاً، متحشرجاً، يطلب المساعدة! ابتسم الطبيب، وهو يراقبها تستعيد وعيها، نظرت إليه، أغمضت عينيها، الألم يحاصرها، لكنها تقاوم، وتفتح عينيها من جديد. نظرت حولها، أيقنت أنها في مشفى، وأن هذ الابتسامة ليست سوى كلمة تشجيع من طبيب! تسارعت في مخيلتها الصور، حتى ارتطم في عينها المشهد الأخير، سألت بنفس متقطع:

- ماذا حدث للصغيرين؟!

- عليك أن ترتاحي فقط.

- ماذا حدث؟

- كلاهما بخير، المهم أن تستريحي الآن، وتستعيدي الدماء التي فقدتها..

ابتعد قليلاً، ثم عاد ليقول لها بابتسامة مشرقة:

- لديك كسور بسيطة في الساق اليمنى، والذراع اليسرى، مع بعض الجروح السطحية بالإضافة إلى بعض الرضوض.. لكنكِ ما تزالين جميلة!

ابتسمت وهي تنظر لنفسها غير مصدقة، فتبخرت ابتسامتها، واستحالت نظرة استغراب وخوف! كان وائل يقف بباب غرفتها، ينظر إليها بارتياح، بينما نهره الطبيب، وهو يسحبه بلطف.

- عليكَ أنتَ أن تستريح، فقلبك لن يحتمل المزيد.

رفعت عينيها بتعب، نظرت إليه: (يا إلهي إنه ذلك الوجه!) التفت الطبيب إليها، وقال بالابتسامة نفسها:

- إنه الشاب الذي حملك إلينا، عليه أن يستريح الآن، فقلبه لن يحتمل المزيد من التعب.

وابتعدا معاً، لتبقى حبيسة ألمها، تتخبطها الأسئلة، ويملؤها الحقد، كلما مرت بذاكرتها صورة الصغيرين، وهما يهربان من السيارة!

في اليوم الثاني من وقوع الحادث، كان المشفى يعج بالجنود، يتقدمهم مستوطن إسرائيل، ورجل في الخمسين من عمره، توزع الشعر الأبيض على رأسه بشكل أنيق، وقد بدا أكثر تهذيباً من غيره.

اقتحموا الغرفة، نظرت جين إليهم بفزع، ثم صاحت بفرح:

- أبي!

أشارت إليهم بغضب:

- اطلب منهم أن يخرجوا فوراً!

فصاح المستوطن معترضاً:

- سننقلك إلى مشفى آخر، وسيدفع هؤلاء الفلسطينيون الثمن!

- ايزاك! لم أعد أرغب في سماع صوتك، كم أنا نادمة! لأنني ظننت للحظة أنه من الممكن أن تكون صديقي.

صمتت قليلاً، ثم قالت وقد بدا عليها التعب الشديد:

- عليك أن تصمت أيزاك، لم يعد هناك ما يقال، ولم أعد أصدق كلمة مما تقول، وهؤلاء الفلسطينيون الذين تتحدث عنهم، هم الذين أتوا بي إلى هنا، في حين أنك تركتني، وفررت بحياتك..

التفتت إلى أبيها، وصاحت بغضب:

- أبي! لا أريد أن أرى جنودهم!

وخرج الجميع، حين أقبل الطبيب مسرعاً، وهو يصيح بطريقة عصبية:

- إنها متعبة!

تقدم والدها منها! سألها بحنو، هو يداعب خصلات شعرها الأصفر بأصابعه:

- جين! ما الذي حدث يا طفلتي؟!

نظرت إليه، اهتز ملامحها، لتنهار دفعة واحدة وتنفجر بالبكاء!

الشرفات الحزينة

أيلول شارف على الانتهاء، واستعدادات الرجل صوب الليالي الباردة، بدأت تلوح من بعيد.. جين بوجهها الطفولي الملامح، تبحث في عيون الأطباء الغاضبين، عن حقيقة الأشياء، تُمعن في صهر كلماتهم، تتشرب حقيقة حزنهم! لم يصل البرد إلى قلبها الذي امتلأ دفئاً بحكايات وائل عن المقاومة والظلم والجنون! قلب جين لم يعد يتسع إلا لشيئين (الحزن.. ووائل) كانت تغضب من الصباح إذا أتى بدون وائل، كان عالمها الجديد، الذي تحياه في الغرفة الصغيرة، بكل حكاياته وأساطيره عن الحب والمقاومة!

لم تكن جين تبحث عن الحب، جين ككل التائهات خلف الرغبة.. مازال يحرك جنونها المطر!

كانت عنيدة كالبحر، تسافر نظراتها عبر الممرات المشحونة بالجنود الإسرائيليين، دم وصراخ وألم تحدى الجدران الصامتة، وغاص سريعاً في الذاكرة.

غزة! وجه الطفولة الضاحك في جسد عجوز مرهق.. لون

الحقيقة حين تحلم بالنهار، حين تصفق لجلاديها، وتبتسم!

غزة أحاطت جسد جين المتعب بذراعيها، ودثرتها!

الوجوه المشرقة، الابتسامة الطيب، والكلمات العنيقة رغم بساطتها، أشياء أحستها جين، في أحزان القادمين بأجساد محطمة، من شوارع الرفض والغضب!

كان الطبيب يرفع ميزان الحرارة بحركة آلية، وهو يسألها ضاحكاً:

- ألم تشعري بالملل بعد؟!

- أشعر بالقهر!

- يمكنك أن تغادري سريرك، وتستطعين مغادرة المشفى إن أردت.

- لم يزرني وائل منذ ثلاثة أيام.. أنا قلقة!

- عليك أن تتخلصي من هذه العادة فوراً، إن كنتِ مهتمة بشاب فلسطيني!

- أية عادة؟!

- القلق!

- هل يمكن أن يصاب بمكروه؟!

- وائل الآن إما أن يكون مصاباً في أحد المشافي، أو معتقلاً.. أو تعباً، وربما غير قادر على المجيء بسبب منع التجول!!

عرض عليها كل الاحتمالات الممكنة، بطريقة آلية، ودون أن ينسى أن يرسم ابتسامة واثقة، على وجهه المرهق بالسهر.

تابعته بعينيها غير مصدقة، توقف قليلاً، ثم التفت إليها... كم كانت دهشتها عظيمة وهي تنظر إليه، يغزو الحزن ملامحه بضجيج صارخ، يكاد يسقط من بريق عينيه دمعة، وهو يقول لها:

- وائل عاش حياة صعبة، لا أتوقع منك أن تفهمي أبعادها، ولكن لم يكن رجلاً عادياً أبداً! عليك أن تعامليه على أنه كذلك.

- سآخذه معي إلى أمريكا، لن أتركه لرصاص هؤلاء الجبناء، وائل يعني الكثير بالنسبة لي، قلبه الضعيف لا يهمني، آلاف الأشخاص يعيشون عمراً رائعاً بقلوبهم الضعيفة!

اقترب منها، جلس على حافة الرير، وقال لها:

- وائل ليس صديقي فقط، إنه ابن عمتي، قضينا زمناً غريباً معاً، لم تكن معايير الحزن والفرح تهمنا كثيراً حين نضحك، أو حين تتدفق من أعيننا الدموع!

وائل عاش كمقاتل و كنت أحسّ بضربات قلبه حين يرهق نفسه، لكنه كان يكابر، وكان جبلاً من صمت، حين يرغب عن الكلام! في لحظة واحدة تهاوى، هواء السجن المرطب بالدم، أنات الألم الساحق حتى النخاع، حاصرت قلبه، وأحكمت قسوة التعذيب عليه الحصار، فتهاوى! وسقط القلب الضعيف بين أيديهم صامتاً...

- هل يعذبونه رغم حالته الصحية؟!

- كاد يموت بين أيديهم، ورغم ذلك بقي صامتاً.. كل ما يريدونه هو الكلمات... ووائل لا يتقن شيئاً كالصمت!

زفر بحسرة، وهو يتابع بشرود:

- نقلوه إلى مشفى السجن، اتفق الجميع على أنه سيخرج منه إلى القبر، لكنّ وائلاً قاوم بصمت إرادته، فأعادته إرادة اللّه!

- كيف يمكن للإنسان أن يكون قاسياً إلى هذا الحد؟!

- عندما أفرجوا عنه كان ميتاً، نظراته جامدة، ابتسامته كالجليد، رغم أنفاسه الساخنة! كان يائساً! نظرة الإشفاق في عيون رفاقه خناجر تعرف طريقها إلى صدره، إحساس بالعجز أطل من عينيه وهو يتفحصنا، ليدرك حجم ضعفه!

وائل يهرب من ذاته، لا تساعديه على الهروب.. نحن نعرف أنه مازال قوياً.. لكنه يرفض أن يكون شخصاً آخر، غير الذي صنعه بنفسه!

وطننا بحاجة إلينا، يمكنك أن تقابلي مَنْ هو أفضل من وائل، لديكِ كل ما تحتاجه المرأة، لتحصل على أفضل الفرص! أرجوك جين! أرجوك لا تمنحيه المبرر للتراجع والتخلي عن الوطن. وائل سيموت إذا خرج من غزة، وائل لا يؤمن الآن سوى بنفسه فلا تجعليه يؤمن بك، شعوره بالضعف والعجز جعله يُجبر نفسه على الإيمان بعدم فائدة المقاومة، لأنه لا يؤمن إلا

بالمواجهة، لا يؤمن بحرب الكلمات أو التحريض.. إنه لا يُحسن سوى المواجهة... لقد كان قاسياً مع كل شيء يحبه منذ الصغر.. ولكنه لا يمارس القسوة مع نفسه... فقط!!

- ولكني أحبه!

- لا تخدعي نفسك!

- كيف تعطي نفسك الحق في الحكم على مشاعر الآخرين؟!

- سآخذه معي... وسترى!

- صوتٌ مرحٌ اخترق جو الغرفة متسائلاً:

- إلى أين؟!

رفعت رأسها، وصاحت بكل ما تحمل عينيها من فرح:

- وائل!!

اقترب منها، احتوت ملامحه بابتسامتها، ثم استرقت النظر إلى الطبيب، الذي هزّ رأسه بيأس، وهو يخرج من الغرفة.

الصمت يفرش الطريق

نظر إلى العجوز، مازالت تقرأ، أدار وجهه، تطلع إلى المقعد المجاور، امرأة شابة ألقت رأسها على المقعد واستسلمت للنوم، أو هكذا بدت للوهلة الأولى! بجانبها فتى أشقر ظلّ يتحدث معها، رغم أنها مغمضة العينين.. أحسّ وائل برغبة شديدة بالكلام، التفت إلى العجوز ثانية، نظر إلى المجلة التي تمسكها، قرّب رأسه منها وحاول القراءة، ثم قال متظاهراً بالإثارة:

- وتتقنين الفرنسية أيضاً!

رفعت رأسها، نظرت إليه، ابتسمت بمكر، ثم عادت لمجلتها صامتة!!

تنهد أكثر من مرة، تمتم بكلمات أغنية كانت تغنيها أمه وهو صغير، لكنه فشل في إثارة فضول تلك العجوز! نظر إليها، كاد أن يتكلم، لكنه أدار وجهه بسرعة، لحظات قصيرة من التردد، ثم عاد نظر إليها، قال وهو يهرب بعينيه إلى كل الاتجاهات:

- لم تسأليني عن أحلامي!

رفعت رأسها بدهشة، نظرت إليه، ثم قالت متظاهرة بعدم الاهتمام:

- أنت تكره الفضول.

فقال لها بلهفة طفل:

- وأكره الصمت!

ابتسامة انتصار أطلت من عينيها وهي تترك المجلة، وتقول بثقة:

- إذن دعنا نتفق.

- على ماذا؟!

- على أن يتحمل كلٌّ منا ما يقوله الآخر، وأن نخرج من الطائرة صديقين.

- أعدك بالأولى.

قالها وهو يبعد وجهه عنها، حتى لا ينفجر من الغيظ! بينما أعادت المجلات إلى حقيبتها وهي تقول:

- المسافر تخيفه الوحدة، كما يعذبه الصمت!

- من الصعب أن يواجه المرء نفسه، حين يهرب من حقيقته، فتلح عليه الرغبة باكتشاف نفسه، ليجد نفسه وحيداً، ضعيفاً، يقاتل في معركة هو الخاسر الوحيد فيها!

- هل تتحدث عن نفسك؟! حدّق في وجههت، زفر بمرارة، ثم قال مبتسماً:

- ربما!

- لماذا هذا الحزن، وأنت ذاهب لبلاد الفرص الكبير؟!

- تسخرين مني؟!

- أرثي لك.

- كيف تتحدثين هكذا عن بلادك؟!

- تبحث عن المال، أم الحب!

- وجدت الاثنين معاً.

- ما اسمها؟

- جين.

- تحبها.

- إنها جميلة، وطيبة، تحبني كثيراً، تعرفت عليها قبل عامين، ولم تتوقف يوماً عن الاتصال بي، لقد بذلك الكثير من أجلي، خاصمت والدها، تركت البيت والعمل، وعاشت سبعة أشهر وحدها، بعيداً عن العائلة، ولم ترجع إلا بوعد من والدها بإحضاري إلى أميركا، وتزويجي منها.. قامت بترتيب كل شيء وحدها، سأعمل مع والدها، وسأقيم في بيتها في نيويورك، اتصلت بأشهر الأطباء المتخصصين، وستتم معالجتي فور وصولي.

- معالجتك؟!

أشار إلى قلبه بمرار، وهو يقول:

- إنه قلبي يا سيدتي!

كم يكره النظرة التي تطل من العيون المشفقة، هرب من عينيها، حتى لا تؤذيه النظرة، لكنه فوجئ بها تقول له بلا مبالاة:

– أنا أيضاً أحمل قلباً ضعيفاً، نصحني الأطباء بملازمة الفراش، ولكني أفضل أن أموت واقفة،، قالوا بأني لن أحتمل المزيد من الانفعالات، فقررت أن أموت من الفرح!

وانفجرت بالضحك، فانتزعت ضحكة حقيقية من بين شفتيه، وهو يقول لها متداركاً:

– تستطيعين أن تغفري لقلبك خيانته، حين تمرّ بك ذكريات الشباب والطفولة! ولكني أجد نفسي أمام عدوي، حين أفكر بقلبي!

– نور تحاول دائماً أن ترغمني على التقيد بتعليمات الأطباء، ولكني مقتنعة بأن المرء طبيب نفسه.. وأنا أحس أن بإمكاني أن أعيش مئة سنة أُخرى!!

ابتسم بحسرة وهو ينظر إليها، ثم قال يبحث عن موضوع آخر يتحدثان فيه:

– لم تحديثني عن نور!

نظرت إليه بمودة، ابتسمت، سرحت بمخيلتها قليلاً، فتلاشت ابتسامتها وهي تقول:

– منذ أن التقت نور بذلك العربي، لم تعد كما كانت، لقد تغيرت كثيراً!

– ربما صارت أكثر واقعية؟ تلك الصورة الرائعة للعرب لا توجد إلا في مخيلتك، كانت ستكتشف الحقيقة على أية حال، مهما فعلت!

- إنه عرب تغير فيه كل شيء... إلا ثيابه!

أشارت إلى ثيابها بحركة عصبية:

- ثياب بيضاء، وقلب أسود!

ثم هزت رأسها بضيق، وهي تقول مستنكرة:

- الثياب مرآة النفس، كيف يرتدي الإنسان عندكم، وباً لا يعكس ملامح نفسه القبيحة؟!

فاجأه السؤال، أضحكه، ولكن بمرارة! رفع يديه، زم شفتيه بانكسار، وسكت وهو يداري الحسرة في ملامحه.

وتنهّدت بضيق، ثم قالت والكلمات تكاد تفشل في التعبير عن ذاتها:

- نور لم تعد تثق بأيّ عربي، حاولت مراراً أن أجعلها تفهم أن الإسلام يُحكم عليه بذاته، لا من خلال المسلمين.. ولكنها ترفض أن تفهم! لقد تغير المسلمون، ولكن الإسلام لا يمكن أن يتغير!

نظر إليها متأملاً، أشاح بوجهه عنها، وقال دون أن يراها:

- لماذا لا تعتنقين الإسلام؟!

- وأخسر نور؟

- ستكسبين نفسكِ!

- سأخبرك سرّاً... أنا مسلمة في قلبي... ولن أتخلى عن هذا الإيمان.. ليتها لم ترّ ذلك العربي.. أنا المذنبة! أنا التي

دفعتها للبحث عن أصدقاء من العرب، اعتقدتها ستلتقي ببعض زملائها في الجامعة!

- هكذا نحن دائماً يا سيدتي، لا نحسن كسب أيّ شيء.. حتى الأصدقاء.

- لقد كانت صغيرة، وكانت تحمل صوراً جميلة حملتها من مصر.. هل شعرت يوماً أنك بحاجة إلى حلم؟! هكذا كانت نور..

- لا يمكن لابنتك أن تحمل حلماً كأحلامنا.

- كنتم أنتم حلم نور.. لقد عاشت سبع سنين بينكم، كانت لا تتذكر من طفولتها أيّ شيء، سوى مصر، وكانت تغيظ أباها بقولها: (لن أتزوج سوى عربي).

ابتسم وائل بسخرية، ثم قال متهكماً:

- زوجك مَدينٌ بالشكر لذلك العربي سيدتي.

نظرت إليه بلوم، ألقت برأسها على المقعد، ثم قالت باستسلام:

- أنا لا أفهمكم أيها العرب!

- لسنا سوى مرايا تعكس صور الآخرين، لا معنى لحيرتك وأنت تعلمين أيّ انكسار يحيط بكبريائنا!

نظرت إليه، لتقدر مدى رغبته في متابعة الكلام، ثم أكملت بهدوء:

- يحكى أن مارداً ألقى بقزم في إحدى الغابات، فسخر

المارد من حجم القزم وتفاخر بضخامته.. غضب القزم منه وملأه الحسد إصراراً على الانتقام منه، فكّر القزم كثيراً، قبل أن يتوصل إلى الطريقة التي تمكنه من تحقيق مأربه.

وفي يوم من الأيام، بدأ القزم يتقافز بخفة أمام المارد، وتحدى المارد أن يفعل مثله، فحاول لكنه فشل، فتملكه إحساس بالعجز، وقضى أياماً طويلة سجين رغبته في أن يصبح خفيفاً وقوياً كالقزم، إلى أن أرشده القزم إلى طريق القوة، وهو الامتناع عن تناول الطعام، مع الوقت أصيب المارد بالهزال، حتى لم يعد يخيف دجاجة، وقد تناقلت المخلوقات أخباره، حتى صار فريسة سهلة لأيّ مخلوق يؤمن بقوته.

وبعد عامين من تلك الحادثة، كان المارد يقفز بخفة القزم، لكنه فوجئ بالتلاشي، والعجز القاتل، حين أقبل عليه مارد ضخم، نظر إليه بإشفاق، ثم انفجر بالضحك! لحظات قصيرة من الصمت مرت، دون أن يعلّق أيٌّ منهما بكلمة، لكنّ وائلاً سأل بهدوء:

- لماذا تخبريني بهذه القصة؟

- عليك أن تفهم نفسك يا عزيزي، لتحدد مصدر قوتك، وإلا تحولت إلى قزم! إنّ الذي يصارع الأقزام يصبح قزماً.. والذي يصارع العمالقة يكون مثلهم!!

- يسعدني أن أبدو لك مارداً.

ضحكت، أشارت إليه بأصبعها وهي تقول بمرح:

- بدأت تختار الوجه الجميل لكلماتي!

- حتى أحافظ على هذا.

- وأشار إلى قلبه وهو يتابع:

- عليَّ أن أرى الأمور بالشكل الذي يرضيني.

- مبرر فج لتزييف الحقائق!

نظر إليها بجمود، فقالت بانفعال:

- عندما يُزين الحاكم الحقيقة البشعة، ويعرضها جميلة على شعبه، بحجة أن يرضيهم، عندما تصف الأم المتعبة طفلها المشاكس، بالهادئ واللطيف، ليكسب حب الآخرين، تضيع الحقيقة ياعزيزي، تتشربها أوهامنا، ونتحول كلنا، إلى أشخاص يرون الأشياء بالطريقة التي ترضيهم..

- ستعودين لمهاجمتي ثانية؟!

- لسنا في معركة!

- يمكن أن تكوني أقل صراحة إذن.

- يضايقك أن أختلف معك في وجهة النظر؟!

يغيظني أن أختلف معك في وجهك النظر؟!

- إذن بدأت تقتنع!

- بماذا؟!

- سكتت قليلاً، ثم قالت بانفعال :

- بأن ترى الحياة كما هي، لا كما تتمناها!

- ابتسم وهو ينظر إليها بإشفاق، ثم قال وهو يغمض عينيه من التعب:

- أنت تغامرين بحب الناس سيدتي! لا أحد يحب أن يواجهه بحقيقته، كلنا نبحث في هذه الحياة عمّن يبارك أوهامنا.

- أحياناً نتمنى في قرارة أنفسنا، حين نقترف الخطيئة، أن نجد من يوقفنا! لا يمكن للحياة أن تستقيم، إن لم يوجد من يشير باصبعة إلى الخطأ.. النظام الذي تعيش فيه الكائنات الحية وغير الحية بإرادة الرب، لا بد أن يوازيه نظام منطقي للحياة البشرية، تكون إرادة الإنسان فيه إمتداداً لإرادة الرب وحكمته.. لهذا لم يقع الإسلام في شرك التناقض مع الحياة، بل كان باعثاً لطاقاتها، ومنظماً للعلاقات فيها، وذلك من خلال ما يسميه المسلمون بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن خلال هذه القاعدة، لا يمكن أن يتخلى أحد عن دوره في الإشارة إلى موقع الخطأ، أو العمل على تصحيحه، ولكي يتفق الناس على أشكال الخطأ والصواب، لا بدّ أن يكون هناك مرجع ثابت، يعودون إليه، حين يختلفون على فكرة ما، فكان

القرآن.. أرأيت كيف يستمدّ الإسلام استمراريته من ذاته، ا منكم أيها المسلمون؟!

زمت شفتيها بضيق، ثم أكملت وهي تهزّ رأسها:

- الإسلام يتعرض لكثير من التشويه عندنا! وأنتم لا تتحركون! بل أنتم إحدى أدوات التشويه! عُدْ للتاريخ، لتعرف عمق الهوة بيننا وبينكم.

أجابها بسخرية:

- وهل لدينا غير التاريخ نُحمِّله إنكارنا وخوفنا، ونبحث فيسطوره عن مجد نظنه لنا؟!

- لديكم ما يخيفنا!

- النفط؟!

- القرآن!

أحسست بدهشته، وهو يحدّق في وجهها، فقالت بثقة:

- لتقدّر قوتك، قدر قوة عدوك!

- لا أفهمك!

- ألا يثير دهشتك أن يُهاجم الإسلام، بكل هذا العنف، وبكل هذه الشراسة، حتى تخالها معركة حياة أو موت، حرب ثقافية، سياسية، عسكرية، والمخلوق المستهدف هو الإسلام!

- أنتِ من يقول ذلك؟!

- الإسلام يخيفهم ياعزيزي، لذلك تجتمع أيديهم الراجفة، ليبطشوا به، لا أصدق أنكم لا تعرفون ذلك، ولكنكم تتصرفون وكأن الأمر لا يعنيكم!

أشاحت بوجهها عنه، ألقت رأسها على المقعد، واكتفت بتلك الكلمات، بينما ابتعد هو بمخيلته هارباً من صدقها! بحث في ذكرياته عن المطر، فأتاه ساخناً رغم الصقيع!

المطروالرحيل

يجلس حائراً ، يعاقر همومه ويبتسم، ويعلم رغم إحساسه المثقل بالفراغ، إنه ممتلئ حتى أنفه، بكل أشكال الخيانة، يدور حول نفسه بصمت مضطرب، يلتفت بخوف، فتتراقص نظراته كالبندول في محجريهما، بحثاً عن تفاصيل جديدة، تُحيل صمته صراخاً، أو دموعاً، أو حتى ارتعاشات في جسده المهدم!

بحث في الماضي عن العزاء، فانصب شبحاً ساخراً بين أصابعه، ارتجف بصمت، فتش في الجدران عن كلمات مبهمة، يُسلي نفسه بتفسيرها، فلم يجد غير اللون الأزرق الجامد!

الأزرق يلقيه في عيني جين، ليقتحمه البحر.. وحزن أُمه!

- جين! لا أستطيع ترك الوطن!

- وحبنا؟! لقد فعلت الكثير لأجبر أبي على الموافقة على زواجنا، لا تقل إنك ستتخلى عني، أنا أحبك ياوائل، أحبك! لا أستطيع تخيل الأيام القادة دون أن تكون معي.

- لماذا لا تبقين معي.. هنا؟!

- المستقبل هناك!

أحاطته بذراعيها، وهي تهمس بخوف:

- حبيبي وائل! لا تفكر كثيراً، عليك فقط أن تتذكر كم أحبك! أنت كل شيء بالنسبة لي، أنا واثقة من أننا سنكون أكثر سعادة هناك.. يمكنك أن تنقل أسرتك أيضاً، إن كان ذلك يرضيك.

- لن يسمح الإسرائيليون لي بالخروج!

- من مصلحتهم أن تخرج، أنت لا تعرف حجم التسهيلات التي يقدمها اليهود للشباب المهاجرين، ومع ذلك، فقد تدخل والدي، ليضمن سلامتك..

ابتعدت قليلاً، تناولت كأسها، ثم جلست على يد المقعد، وهي تقول بارتياح:

- لقد تعرفت على صديق لك يُدعى (سالم الفتوح).

نظر إليها بقسوة، ثم قال وهو يضغط أصابعه بغضب:

- ذلك القذر!

- لقد وعدنا بتأمين سفرك إلينا، ووعده والدي بأن يكون سخياً معه.

- هل كتب عليَّ أن يبيعني هذا الرجل أكثر من مرة!

- أنت تكره سالماً؟!

أجابتها نظرته الحادة، حين التفت إليها مستنكراً، فاقتربت منه بسرعة، وقالت وهي تجبره على الجلوس:

- عندما نكون معاً في أميركا، ستنسى كل هؤلاء، لن تتذكر سوى جين! أعدك يا حبيبي، أعدك بشيئين: الحب والحياة!

الألم أكثر صدقاً

ارتفع صوت المضيفة، ليغزو أذنيه، فينصت باهتمام، كانت تتحدث بالعبرية، مما جعله يترجم للعجوز، فور سماعه الكلمات:

- معنا في الطائرة فنان إسرائيلي، سيلقي بعض النكات، ليبث المرح بين المسافرين.

فقالت العجوز هي تغمض عينيها بلا مبالاة:

- لم أخبرك أني أتقن العبرية؟!

ضحكة قصيرة، ولكنها خرجت من القلب، لترسم ملامحه من جديد.

ألقى رأسه على المقعد هو الآخر، وحاول أن ينام. أصوات صاخبة أتته من بعيد، خوف حذر، وترقب يحيط بالعينين على شكل هالات سوداء!

أتاه أحمد من صمت الذكريات، عنيداً كأسوار عكّا، رقيقاً كالفجرِ! كان أحمد الكلمة الغاضبة في كتب وائل، كان وجهه الحي، حين تموت في الأمنيات، تعرف عليه لأول مرة في القدس، كان جاراً لخال وائل. كان وحيداً، يتيماً، وكان يعرف

تماماً ماذا يريد؟ ورغم أن وائلاً تشاجر معه حين رآه لأول مرة، إلاّ أنه لم يشعر بيده وهي تمتد لأحمد مصافحة، حين جلسا يأكلان من طبق واحد، في بيت خاله!

وسرعان ما صار الصمت كلاماً حارقاً، ورغبة شديدة في فعل أيّ شيء! كان أحمد على علاقة مع بعض المجاهدين، فقدم إليهم وائلاً، وكانت الكلمة الأولى، في ملفه الطويل!

شتاء ذلك العام كان حزيناً ككل الفصول! يسير عبر عام من الحيرة والغضب، حاملاً دموعه شموعاً في ليل الجائعين... كانوا مجموعة صغيرة، مكونة من ثلاث شبان، يحملون بعض السلاح، ويترقبون دورية العدو القادمة من المعسكر الغربي.. كانوا يعرفون أن خطواتهم ترسم النهاية على التراب المبتل، وائل استطاع أن يحرر عينيه من صفعات المطر المتتابعة، لينظر إلى حذائه... كان الطين يحيط كالخاتم.. أحسّ بثقل قدميه، فأشار إليهم بالتوقف، لكنّ أحمد أمسك بيده، شدّه إليه، وهم يتمتم بنفاذ صبر: (لا تتوقف!) لحظة تعب حائر عاشت في عينيه، وهو يسحب يده من قبضة أحمد، بينما اتسعت عينا عمر، بنظرة لائمة، أحالت البرد صراخاً عاصفاً، يعد بالصمت.

همس وائل بضيق:

- ألم نصل بعد؟!

فأجابه أحمد، وهو يخلع غصناً نافراً من شجرة لوز:

- لو كان للصياد صبر العنكبوت لأتت الفريسة إلييه.

- أتظن الذخيرة تكفي؟!

· تكفي لانتحار رجل نفذ صبره!

شيء ما حط على كتف وائل، فجعله يجفل، التفت بفزع، فإذا بالعجوز تضرب كتفه بملل، محاولة أن تنبهه إلى وجود المضيفة، التي وقفت تنظر إليه مبتسمة، نظر إليها ائل، ثم قال وقد بدا محرجاً:

- عفواً، لم أنتبه لوجودك!

- يبدو عليك التعب والجوع!!

- هل هذا يعني أنك ستقدمين لنا وجبة؟!

- بالتأكيد سيد وائل.

- نظر إليها بدهشة، فقالت موضحة:

- طُلب مني أن أعتني بك بصورة خاصة.

نظرت إليه العجوز بمكر، ثم قالت وهي تحاصره بعينيها:

- لا بدّ أنها تحبك كثيراً!

ضحكت المضيفة، ثم قالت مبتعدة:

- لا تفكر بالذين ودعتهم، فكر بالذين ينتظرونك، فلم يبق سوى ثلث الرحلة!

جين تخترقه رغماً عنه كلما أحسّ بالتعب، يحسها تسبح في عروقه بصمت، وتتركه يتحدث بكلماتها حاول مراراً أن يقاوم رغبته في الانتقام من نفسه، ولكنٍ دون جدوى!

قبل أربعة أشهر، أتت جين إلى فلسطين، تحتفل بعيد ميلادها، كانت سعيدة رغمالجمود في نظرات وائل وكلمات، حاولت أن تخلق منه رجلاً جديداً، بدون حزن، لكنه كان يحاصرها، ويدافع عن حزنه، حتى اللحظة الأخيرة!

موسيقا صاخبة، رقص، ضحك، وصرخات مرح ونشوة، الكلّ يرقص، والكل يضحك، بينما يجلس وائل بينهم صامتاً، يراقبهم باحتقار، ويفكر بأمه!

جين تحمل كأسها وترقص، تنتقل من ذراع لآخر، تتوزع علي وجهها عشرات القبلات ووائل ينظر إليها مالمجنون، يقاوم صوتا يصيح في داخله: (خذها من بينهم.. أو اتركها للأبد) تقدم منها.. لم تسمعه، شدها بقضبته، وصفعها!

نظرت إليه غير مصدقة، تغير لونه، إنه يتنفس بصعوبة، أمسكت يديه وهي تصرخ برعب:

- طبيب! أريد طبيب! وائل حبيبي لا تغضب! سنخرج الآن، فوراً.

فتح وائل عينيه - في المشفى - على صوت بكائها، وهي تقبّل يده بحزن شدد، نظر إليها، ابتسم، رفع رأسها بيده، وقال بصعوبة:

- أكره البكاء!

مسحت دموعها بكفيها، لكنها لم تتوقف، قالت له وهي تشدّ على يده بخوف:

- عليك أن تقاوم الألم! أمامنا الكثير لنفعله.

- كيف ترقصين من هؤلاء اليهود؟ كيف تسمحين لهم بتقبيلك؟!

- سنتحدث فيما بعد، عليك ألا تجهد نفسك!

لكنه لم يتوقف، بل تابع بانفعال:

- كف تحب المرأة رجلاً، وتراقص آخر؟!

- أرجوك اهدأ.

ثم انفجرت بالبكاء، وهي تقول بانهيار:

- أنا أحبك أنت، قد أرقص مع شخص آخر، قد يقبلني ولكن أحبك أنت!

- وعندما نتزوج! عندما تنجبين طفلاً.. هل سيكون ابني أم ابناً لأيّ شخص آخر؟!

- أنا على استعداد لأن أفعل ما تريد، فقد اهدأ!

نهاية الطريق

كان وائل جائعاً، ومتعباً، لكنه لم يكن يأكل بشهية، كان شارد الفكر طوال الوقت، لا ينتبه إلى وجوده في الطائرة إلا ليتحدث مع العجوز التي بدأت تميل إلى الصمت بعد أن كانت تدفعه إلى الكلام!

قال لها وهو يمسح رأسه بكفه:

- ربما أفتقدك في نيويورك!

- يمكنك أن تزورني..

وأعطته ورقة كتبت عليها العنوان، طواها بعناية، ووضعها في جيبه: فقالت مؤكدة:

- إذا احتجت لأيّ شيء، اتصل بي، يسعدني أن تفعل.

- لست متضايقة مني؟!

نظرت إليه، فكرت قليلاً، ثم قالت مبتسمة:

- أنت شاب طيب ياوائل!

تشارف الرحلة على الانتهاء! أحسّ في داخله شيئاً يتفتق عن الخوف، هذه سماء غير التي غطته في غزة وهذه الغيوم

من من أين أتت؟ أيمكن أن تفهم كلماته إنْ تحدث إليها؟! أحسّ بضيق في صدره، حاول أن يأخذ نفساً عميقاً، نظر إلى العجوز، بدت نائمة، ابتعد بوجهه بحثاً عن الهواء..

عيناه محمرتان، شفتاه تأكل كلٌّ منهما جسد الأخرى بعنف، أما يداه.. فتتعانقان بغضب!!

نظر إلى الوجوه المرتجفة حوله باحتقار، خمسة وجوه محاطة بالقلق!! الأيدي كثيرة، لم تعد عيناه على محاصرتها.. كلّ الأشياء الصلبة الموجهة نحوه تهدد بقتله!!

في الطريق إلى المعتقل، تتضخم الخطوات، تصير بحجم الكلمات المرسومة على أفواه الأطفال.

في الشوارع الفلسطينية الحزينة، تصرّ على تفتيت الأرض لتعبث فيها لون الغضب المستورد بالحزن.

وضعوه في زنزانة قديمة، حاول أن يتنفس، لم يصدق أن بامكانه أن يبقى حياً وسط الموت، وبين الجدران السوداء.. نفخ على أصابعه وابتسم.. إنها أنفاسه!! مازال حياً، رغم كل شيء!! تحسس الجدران الصامتة، كالطفل حاول أن يفسر صمتها، تلمسها بشفتيه، ألقى برأسه على الجدار... وبكى.

فُتح الباب، تقدم منه جنديان، قال له أحدهما، وهو يصوب سلاحه نحوه:

- هيّا.

- إلى أين؟!

- إلى الجحيم!.

ابتسامة باردة غطت وجهه.. رفع جسده عن الأرض، وتبعهما، وعشرات الأعين تحيط بخلايا جسده.

جلس على كرسي صغير، كان الضوء خافتاً، لكنه ظلَّ يحدق في الكرسي، ثم طار بمخيلته إلى غزة، أخته حياة كانت تحب الجلوس على الكرسي ذي الأرجل الثلاث!!

ابتسم بحزن، وقال لنفسه ساخراً:

(آه يا حياة!! لو تعلمين أن أخاك يجلس الآن على كرسي،، وبرجلٍ واحدة!!).

قطع صوت المحقق ابتسامته بقوله:

- هل أعجبتك غرفتك؟

ابتلع سخرية المحقق، وقال بنفس اللهجة:

- لا .. المعاملة هي التي أعجبتني.

- حتى نعاملك بلطف، عليك أن تكون لطيفاً.

- كيف؟!

ابتسم المحقق، وقال وهو يقدم له سيجارة:

- تبدو أشد ذكاءً من رفاقك.. أجب على أسئلتنا بصراحة،

وسنعيدك إلى أمك.. أنت حزين من أجلها، أليس كذلك؟!

- لست طفلاً لأفعل.

- كلنا أطفال، على الأقل.. في عيون أمهاتنا ياوائل!

- عندما أتيتم إلى بلادنا، سلبتم منا كل شيء.. حتى الطفولة!!

- نحن لم نأت يا وائل.. نحن عدنا.. أتفهم؟ عدنا.

- هذه الأرض لنا، شئتم أم أبيتهم!!

- الوطن فسيح، يتسعنا معاً.

- أنتم الذين ترفضون وجودنا.

- لم نقتل نساءكم وأطفالكم يوماً ما.. ولم نُفجّر بيوتكم بعد!!

نظر إليه المحقق بقسوة حاول أن يمتصها دون جدوى، فقال وائل بسخرية:

- ألهذا أتيتم بي إلى هنا؟!

أشعل المحقق سيجارة، وصار يحاصر وائلا بعنيه، ثم قال مبتسماً:

- لابد أن أسرتك كبيرة.

- لي ثلاثة أشقاء.

- وأخت واحدة تعيش مع أمك في غزة.. ما اسمها يا وائل؟

- موت.

- بدأت تكذب!!

- لم يجبه وائل، بينما بدا الارتياح واضحاً في ملامح

المحقق، فأكمل متصنعاً اللطف:

- حياة لا تشبهك يا وائل!!

جحظت عينا وائل.. لأول مرة يهرب من الخوف فيطارده، ابتلع أنفاسه، واكتفى بالصمت.

- إن تعاونت معنا، قد نسمح لها بزيارتك، وإنْ نجحت في كسب ثقتنا، قد نعيدك إليها.

نظر إليه وائل بازدراء، وقال وهي يطفئ سيجارته بقرف:

- الإنسان يموت مرة واحدة.

فرد عليه المحقق بغيظ، وهو يشير إلى الجندي ليأخذه:

- سنرى يا وائل.. سنرى.

بين الأرض والسماء

علقوه بالسقف عارياً، ثلاثة أيام وقدماه تقاومان عشقهما للأرض!! ألقوه في حوض الثلج.. صرخات حادة كانت تخرج من جده، لكنهم أبقوه حتى ظنوا أن الموت عانقة أكثر من مرة!!

كانوا يركلونه بأقدامهم، ويبصقون على جسده، كانوا يعلمون أنه بحاجة إلى عام حتى يستعيد بعض قوته.

أعادوه إلى زنزانته.. جدران سوداء مظلمة.. باردة.. نظر حوله في يأس، ثم ألقى بجسده على الأرض، وهو يصرخ بغضب (أيها الكلاب.. أريد صفيحة..) لم يجبه أحد.. ينظر إلى الجدران السوداء بإرهاق، ثم عاد بذاكرته إلى غزة وسخرية يائسة، تغطي وجهه!!

(والده كان يضربه لأنه كثير الكلام، أما هؤلاء فيريدون قتلك ليتكلم!! إنه عالم غريب... الموت هو الشيء الوحيد المنطقي فيه!!)

اقترب أحد الجنود من المحقق وقال بعصبية:

- لن ينفع معه سوى الكهرباء!

- ألم تلاحظ أن كثير الصراخ؟

- كلهم يصرخون.

- أرى أن نحاول تجنيده.

مستحيل!!

- علينا أن نحاول.

- هؤلاء الشبان يفضلون أن تأكلهم الكلاب، على أن يمدوا أيديهم إلينا!!

- ألم ننجح مع غيرة؟!

- وائل مختلف.

دار حول نفسه قليلاً، ثم قال بإصرار:

- ولهذا علينا أن نحاول.. أوقفوا تعذيبه، سأراه غداً.

عندما أعادوه إلى المحقق مرة أخرى، بدا له الكرسي مريحاً أكثر!! ألقي بجسده عليه. وتناول سيجارة..

ابتسم المحقق، وأشار إليه بأخذ ما يريد.

بينما كان وائل ينفث دخان سيجارته بإرهاق، كان المحقق يراقبه بمتعة، محاولاً أن يظهر الود في كلماته :

- كم عمرك يا وائل؟

- بدأت الإنتفاضة وأنا في العشرين.

- وماذا عن سنوات الانتفاضة.

- لا يمكنك أن تحسب هذه السنوات القاسية من عمرك ياوائل.. أنت وأهلك لم تعيشوا هذه السنوات.. الإضراب، الحجارة، التخريب، هذه أشياء تقتل الحياة، أنت ما زلت شاباً.. الحياة أمامك مليئة بالفرص الرائعة!! سني عمرك تقتل دون أن تعيشها يا وائل، وبسبب مَنْ؟! بعض الأغبياء الذين يحلمون بالمستحيل!!

سكت قليلاً، ثم سأله وهو ينفث دخان سيجارته، متظاهراً بالتأثر:

- ألا تحلم بفتاة جميلة، تشاركك شبابك الذي يضيع منك بلا مقابل؟! أنت شاب ياوائل.. من حقك أن تنام في فراش دافئ، بدل هذه الزنزانة الموحشة، من حقك أن تحيا ككل الشبان.. أنا لا أصدق أنك بدون فتاة!

- نحن لا نملك ثمن الأحلام الجميلة!

- نحن سنتكفل بتحقيقها إنْ تعاونت معنا.

- لست سوى..

- فقاطعه المحقق بفرح:

- لا يهمنا ما تقدمه لنا، المهم أن نشعر أنك إلى جانبنا.

ثلاث دقائق من الصمت مرت، دون أن يكسر أيّ منهما حائط الصمت الذي أقامه دخان سجائرهما حتى قال المحقق بلهجة قوية:

- مَنْ الذي يحرضكم على مضايقة الجنود؟

- أنتم.

- ماذا تعني؟!

وجودكم في الشوارع، وعلى صدور الناس، عيونكم، أرجلكم، رصاصكم، الذي عرف طريقه إلى أطفالنا، الدم، الإهانة، كل هذه الأشياء، ترغمنا على رمي الحجارة.

- أنتم الذين تلقون بأطفالكم إلى رصاص الجنود، تقاومونهم، وتحاولون إيذاءهم.. من حق الجندي أن يدافع عن نفسه!

- ولا يحق لشعب أن يدافع عن نفسه؟!

- أنت تخلط الأمور ببعضها.. موت صديقك أحمد هو السبب، أليس كذلك؟! ثم أكمل متظاهراً بالتأثر:

- لا أدري ماذا سيحل بأمك، لو مت أنت الآخر!

ثم قال وكأنه تذكر شيئاً:

- وائل!! لم تقل لي، ماذا تعرف عن الموت؟!

- أنا لم أمت بعد!

- في غرفتك مات سجينان، أحدهما رفض أن يكون لطيفاً.

- والآخر؟!

- مات قبل أن نطلب منه أن يكون كذلك... هذا يعني أنك محظوظ فأنت مازلت حياً.

- لو كنت كذلك، ما جئت إلى هنا.

قدم إليه المحقق سيجارة أخرى، وقال معاتباً:

- أنت هنا وحدك، تدفع ثمن غبائهم جميعاً، وأمك وحدها التي تبكي!! أيّ مكسب يمكن أن تحققه وأنت مرمي في السجن، جثة لا تشعر بالحياة؟! من أجل مَنْ تقاوم؟! كلهم باعوك يا وائل فاشتر نفسك ببعض الكلمات.

لم يجبه وائل، واكتفى كعادته بالصمت، بينما بدأت نظرات المحقق تتخذ مساراً جديداً، بدا أكثر حدة، قال له مهدداً:

- أستطيع أن أجبرك على الاعتراف بمساهمتك في الاعتداء على دورية إسرائيلية، وقتل أحد جنودنا فيها.

فأجابه وائل ببرود:

- منذ متى تقدمون مبررات للقتل؟!

- ولكني لا أريد أن أقتلك، أنت تعلم أن بإمكاني أن أحصل منك على ما أريد، ودون أن أضيع وقتي معك، أنت تعجبني يا وائل!! دعنا نصبح أصدقاء... فقط أذكر لي أسماء الأشخاص الذين يحرمون شعبنا متعة الحياة.

- أنتم وحدكم تسمتعون بالحياة.

- ليس لديكم ما تعطونه لي

- أحمد ضحية هؤلاء الأغبياء يا وائل !! أنا وأنت سنجعلهم يدفعون الثمن.

-أنا لا أعرف أحداً.

-أستطيع إرغامك على الاعتراف بأسمائهم، ولكني أفضل أن أجنبك ذلك.. ساعدني حتى أقدر على مساعدتك.

سكت قليلاً، ثم قال مهدداً:

- ماذا عن أمك يا وائل؟

- أمي اعتادت على فقدان أحبائها!!

نظر إليه المحقق بغضب، بينما ينظر وائل حوله بضيق.. (لم يكن سوى كرسي عادي، حتى المحقق بدأ أقصر مما كان عليه سابقاً.

هب وائل واقفاً، وقال بإصرار:

- ليس لديَّ ما أقوله.

وبحركة عصبية أشار المحقق إلى الجندي بإعادته إلى زنزانته.

القلب والموت

في غرفة التعذيب. كان وائل كالخرقة البالية بين أيديهم، وهم يستمتعون بوخزه بالإبر.. كان صمته يغيظهم، فيزدادون تعذيباً له!!

سأل المحقق الجنود عن وائل. فأجابه أحدهم بضيق:

- هؤلاء الفلسطينيون كالقطط لا يموتون أبداً!!

- نحن لا نريده أن يموت.

- ولكنه لن يتكلم.

- سيتكلم.. لا تقلق.. الألم وحده كفيل بخلقه من جديد.

نظر حوله وهو يمط شفتيه بتأمل، ثم قال له بلهجة آمرة:

- دعو أمه تراه.

- ولكنّ زيارات الأهل ممنوعة!!

- نفذ ما أمرتك به.

- صدقني يا سيدي... إنْ رأى أمه سيقاوم أكثر.

- تابعوا تعذيبكم له.. أريدها أن تراه شبحاً.

وائل لم يعد يرى الأشياء، صارت هي التي تراه، وتبحث عن

جسده!! مددوه على طاولة زُرعت بالمسامير، حاول أن يرفع جسده، ولكنْ لا فائدة، فلم يعد لديه ما يكفي من القوة.. أغمض عينيه بألم، وهو يراقبهم وهم يعدّون السقف لتعليقه، وقد يئسوا من ضرب رأسه بالجدران.

بعد أربعة أشهر من التعذيب. سمحوا لأمه برؤيته.. حاول أن يبتسم، عندما حضنت يده بحزن، وصارت تزرع قبلاتها فيها، لكنه ألقى رأسه على صدرها، وانفجر بالبكاء.. هي الأخرى حضنته بقوة، وشاركته جنون دموعه.

لم يقولا ولو كلمة واحدة!! ظلا يبكيان حتى ترك كلٌّ منهما الآخر، شدّت أمه على يده بقوة، حاولت أن تقول شيئاً، ولكنها لم تنجح في رسم الكلمات، فاكتفت برسم ابتسامة صغيرة وخرجت..

في زنزاته، قَبّل كلّ الجدران!! حتى وائل لم يكن يعرف أن البكاء نعمة من الله، وأن الأم هي الوجه الحقيقي للفرح!!

ثلاثة أشهر أخرى، والحال هو الحال، حتى إن الجنود بدأوا يتذمرون من تعذيبه، وصاروا يعلنون عن رغبتهم في قتله.

في غرفة التحقيق، لم يسمحوا له بالجلوس على الكرسي هذه المرة، قال له المحقق بسخرية:

- لقد خسرت كل شيء ياوائل.. لم يعد لديك سوى الموت.

كل الأماكن التي يكرهها، تضن عليه بالهواء.. غرفة

التحقيق حبست هواءها في رئة المحقق، وضحكت بجنون!
يصيح المحقق بغضب (اعترف!) يحاول وائل أن يقول شيئاً، ولكنّ حتى الكلمات بحاجة لكي تقال، يداه مكبلتان، يرتفع برأسه، وينخفض! ينظر إلى يمينه باختناق، يهرب إلى يساره! ولكن دون جدوى، ازْرَقَّ وجهه وسقط على الأرض بلا حراك.

أخاف سقوطه المحقق، فأمر بالتخلص منه، ألقوه في مشفى السجن، وعادوا لسجائرهم التي تطفأ في الأجساد المعذبة!

قال لهم الطبيب: (لا فائدة من قلبه، قلبه لا يحتمل المزيد، ليس أمامه سوى الموت)!!

كان وائل يئن وحده في الغرفة الضيقة، يحاول أن يقاوم ضعفه ويكابر، هؤلاء الأطباء الذين يتظاهرون بالحزن، هم الذين يعتنون به، ليعود إلى سجنه، ويتذوق ألم التعذيب وكأنه يتعرض له لأول مرة!

اقترب منه المحقق، ابتسم بسخرية، ثم قال متشفياً:

- عليك أن تجد لنفسك مشفى آخر. لن تعود إلى السجن، نعرف كلّ شيء عنك، ثم لا داعي لأن تموت عندنا، فتصبح بطلاً أو شهيداً!

ظل وائل صامتاً، قاوم نوبة حادة من البكاء، رسم ابتسامة باردة على وجهه، وأغمض عينيه: (ألا يكفي أن يخونني

الأصدقاء، حتى يخونني هذا القلب؟! كيف يحمل الإنسان شيئاً منه؟! يصبح عدوك جزءاً منك؟!).

خرج المحقق، أغلق الباب خلفه، إحساس قاتل بالعجز حاصر وائلاً، كبّله، وأبكاه! شد قبضته بعنف، وأخذ يضرب صدره بكل قوته، الممرضة نظرت إليه بذهول، لم تفعل شيئاً سوى الصراخ.. عاد المحقق، نظر إلى وائل بحقد، لكنّ الأطباء أخرجوه بسرعة، وقيدوا وائلاً في سريره!

مرة ثالثة

دمعة صغيرة فرت من عيني وائل، وهو يستجيب لكلمات المضيفة، التي طلبت من الجميع أن يربطوا الأحزمة.

قالت له العجوز ضاحكة:

- رحلة طويلة؟

- لم تكن مملة.

- يدهشني أن تقول ذلك!

نظر إليها بحب. يا إلهي! كيف لم يكتشف قبل هذه اللحظة، أنها تشبه أمه؟!

جلس وائل في ردهة المسافرين، لم يكن يشعر بالإثار. وإنما كاد ينام من شدة التعب، نظر حوله بملل، المسافرون لا يتقنون شيئاً كالفوضى!

رفع رأسه لينظر إلى أعلى، فوجد عدداً من أجهزة التلفاز معلقة بالسقف.. ولشد ما أدهشته أن يبث أحدهما برنامجاً خاصاً عن الانتفاضة، ضحك وهو يقول لنفسه بسخرية: (أيعقل أن تلاحقني الانتفاضة إلى هنا؟!).

ظل ينتقل بناظريه بين المسافرين والشاشة الصغيرة، أخرج علبة السجائر من جيبه، تحسسها بشوق، ثم أخرج سيجارة، قبلها قبل أن يثبتها بين شفتيه، نظر إلى الشاشة وهو يشعلها.. جحظت عيناه، جنود إسرائيليون يمسكون بشابين ويربطونهما ببعضهما يضربونهما بالحجارة، على الرأس، على الصدر، بين العينين، على المفاصل، أمسك الجنود بأحدهما، ثنوا ذراعه، وبدؤوا يحطمونها بقاعدة البندقية، اقترب وجه الشاب من الشاشة، صراخ الألم يبكي في عينيه، ويكابر!

سقطت السيجارة من فم وائل، وهو ينظر إلى الشاب غير مصدق! ستار أسود غطى جدران الردهة ووجوه الناس، قام وائل برعب، اتسعت عيناه حتى احتوت الشاشة، صاح بغضب قاتل:

- عليّ! عليّ!

وركض باتجاه الشاشة!

قدماه تخونانه، تسقطه على الأرض، لتهرب الصور من عينيه، ويحاربه الهواء! حاول أن يبكي. أن يضرب الأرض برجليه، لكنه ظلّ يصرخ بصوت مكتوم:

- عليّ! علي!

لن أموت سُدى

كانت تشهق بالبكاء! العينان منتفختان بشكل يثير الشفقة! والدموع ترسم خطوطها متعرجة على وجهها المرهق من طول السهر والانتظار!

جلست على كرسي بجانب سريره، ممسكة بيده طوال الوقت، تقبلها حيناً، وتنفجر بالبكاء حيناً آخر.. فتح عينيه، نظر إليها، أغمضهما، وتأوه بألم، ضمت يده إلى صدرها، وانخرطت في صلاة لا نهاية لها! فتح عينيه ثانية، بعد ساعتين من الأنين، حدّق في وجهها، حاول أن يبتسم، فخانته الشفتين، قال لها وهو يستجمع أنفاسه:

- عليّ!

- أنت متعب الآن، لا تجهد نفسك بالكلام.

نظر إليها بحزن، قال وهو يغمض عينيه:

- لقد رأيته! لا أريد أن أموت.. ليس هنا (جين)! ليس هنا!

انفجرت بالبكاء، وهي تقول بطريقة هستيرية:

- لا تقل هذا يا حبيبي، ستعيش من أجلي، لقد أعددت كل

شيء، أنا لم آتِ بك هنا لتموت.. وائل عليك أن تقاوم! عليك ألا تموت!

- لا تخف! لا تخف! أنت في حاجة إلى الراحة فقط، عليك ألا تستسلم لليأس، أنت معي الآن، لا شيء يدعو للخوف!

هزّ رأسه بيأس، حاول أن يتكلم، لكنها غطت فمه بأصابعها، وقال بهدوء:

- سأتركك الآن، لا تتحرك، لا تجهد نفسك بالكلام.

تابعها بعينيه وهي تغادر الغرفة، التفت إليه فقال بيأس:

- عليّ!

أغلقت الباب خلفها، نظر حوله بحزن، لم يجد غير الجدران الصامتة، فانفجر بالبكاء!

دخلت إحدى الممرضات، ابتسمت بلطف، وسألته عن حاله، نظر إليها باستغراب، ثم سألها:

- منذ متى وأنا هنا؟

- أربعة أيام.. هذا يعني أن إرادتك للحياة أقوى من الموت!

ابتسم بسخرية ثم قال لنفسه : (الموت مخلوق لا يعرف التراجع! ربما يعطني الله فرصة جديدة لأكتشف حقيقة نفسي!).

- قالت الممرضة بابتسامة كبيرة:

- إنها تحبك بجنون.

- مَنْ؟!

- جين.. إنها لم تتركك منذ إحضارك من المطار.. ولم تنم لحظة واحدة.. كنت أظن أن الحب الحقيقي قد انتهى من العالم... ولكنكما حقيقة رائعة!!

لم يجبها.. واكتفى بابتسامة متعبة!!

الوقت يمرّ بحزن...

نهض وائل من سريره، بدّل ثيابه، وابتسم لفكرة أسعدته حين داهتمه فجأة، وهو يرى وجه أُمه على الوسادة..

خرج من المشفى، لم يعترض طريقه أحد، ربما لم تره عيونهم! سار وحيداً في الشارع العريض، أوقف سيارة، قال للسائق وهو لا يكاد يسيطر على أنفاسه:

- أرجوك، خذني إلى أقرب مكتب للسفر هنا!!

- تبدو متعباً!

- هذه كل ما لديَّ.

وأعطاه الكثير من الدولارات التي كانت تنفخ جيبه، لم ير الموظف في حياته رجلاً متعباً ومتلهفاً على السفر مثل وائل.. ولم يفهم الموظف قيام وائل باحتضانه وتقبيله عندما أخبره عن إمكانية سفره على الطائرة الذاهبة إلى إسرائيل بعد أربع ساعات!!

قلبه ينبض بقوة، يكاد يطير من خفة قدميه! نظر حوله

بارتياح، حاملاً التذكرة، وهو يمشي في ردهة المسافرين بثقة.. رأى الأطفال يُلوّحون له من بعيد، جَدّه يبتسم، البحر يصفق بيديه، أُمه مازالت تخبز، وتحرق الخبز، لأنه يحب أن يأكله محروقاً.. حياة تتذمر من بعيد، يصله صوتها خافتاً، وهي تصيح : (أنت تحبين وائلاً أكثر منّا يا أمي!).

ها هو عليّ يرش وجهه بالماء ليوقظه، يريده أن يصلي الصبح في المسجد!

أحسّ وائل ببرودة الماء، انتفض جسده، الماء يغطي وجهه، يُحاول أن يتنفس يصيح عليّ بلهفة: (قم ياوائل، قم للصلاة، أجب نداء الله أكبر!).

ينظر إليه وائل في عيون المسافرين، يُحاول أن ينهض، يخلع سترته، يفتح أزرار قميصه، يحاول أن يتنفس، يخونه الهواء! لكنه لا يستسلم، صوت يخرج من داخله: (حين تفكر بخيانتي أيها القلب.. عليك أن تموت).

وقع وائل على الأرض، نظر حوله، وجوه المسافرين تختلط بالأصوات الصارخة.. لم يعرف أحداً منهم. دموع تفرّ من عينيه بيأس: (هل أتيت هنا.. لتموت سُدى؟!).

ما هو جَدّه يقترب، يمسك يده، يقبّلها، ويقول بحب: (أنت أحبّ أحفادي إليَّ يا وائل...) لقد انتظرتك طويلاً..).

مـا زال وائل يقـاوم، يشـدّ على الـتـذكـرة، ويـحـاول أن ينهض، اقـتـرب منه رجـال الإسـعـاف، نظر إليـهم مـدّ يده، حـاولوا أن يمددوه على الأرض، قـاومه! نـهض وحده، رفـع الـتـذكـرة، دموعـه بللتـهـا، أمـسك بـه رجل الأمن.. لم يـقـاوم.. ابتـسم بارتيـاح، والتذكرة تسقط من بين أصابعه.. ليموت واقفاً!

- انتهت بحمد الله -

المؤلفة في سطور

- الاسم : جهاد عبد الرجبي
- الجنسية: أردنية
- تاريخ الميلاد: ١٩٦٦ م
- الشهادة الدراسية: بكالوريوس هندسة زراعية من الجامعة الأردنية عام ١٩٩٢م.
- عضو رابطة الأدب الاسلامي العالمية.
- فازت بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية التي أجرتها رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- صدر لها عدد من من المجموعات القصصية والرواية ومنها:
- لم تحمل الرصاص.
- محاكمة في الغابة.
- لن أموت سدى (رواية)
- الصحراء (رواية).
- رحيل (رواية).
- ونشرت عشرات القصص في مختلف الصحف والمجلات العربية والأجنبية باللغتين العربية والانكليزية.
- عنوان المراسلة : الأدرن، - الزقاء - ص. ب ١٥٠٤٣٦

سلسلة أدب الأطفال

١ - غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.

٢ - قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.

٣ - تغريد البلابل - يحيى الحاج يحيى

٤ - مذكرات فيل مغرور د. حسين علي محمد.

٥ - أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.

٦ - أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.

٧ - باقة ياسمين «مجموعة قصصية للأطفال من الأدب التركي» تأليف علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.

تحت الطبع

١ – ديوان «اقباس» طاهر محمد العتباني.

٢ – الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة – د. كمال سعد خليفة.

٣ – بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.

٤ – بحوث ندوة تقريب المفاهيم عن الأدب الإسلامي.

٥ – الأعمال الفائزة في مسابقة ترجمة الإبداع من آداب الشعوب الإسلامية (ستة كتب).

٦ – الأعمال الفائزة في مسابقة الأدبيات الإسلاميات (١٠ كتب)

٧ – الأعمال الفائزة في مسابقة أدب الأطفال التي أجرتها الرابطة، وهي:

– مجموعات شعرية.

– مجموعات قصصية .

– مسرحيات.

١ – من الشعر الإسلامي الحديث – لشعراء الرابطة.

٢ – نظرات في الأدب – أبو الحسن الندوي.

٣ – ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.

٤ – دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحيث. د. عبد الباسط بدر.

٥ – النص الأدبي للأطفال د. سعد أبو الرضا.

٦ – ديوان «البوسنة والهرسك – مختارات من شعراء الرابطة.

٧ – لن أموت سدى «رواية» الكاتبة جهاد الرجبي (الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية.

٨ – ديوان «يا إلهي» محمد التهامي.

٩ – يوم الكرة الأرضية «مموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.

١٠ – ديوان مدائن الفجر د. صابر عبد الدايم.

١١ – العائدة «رواية – سلام أحمد إدريو» الرواية الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية.

١٢ – محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.

١٣ – الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني د. حلمي القاعود.

١٤ – ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.

١٥ - ديوان «في ظلال الرضا» أحمد محمود مبارك.

١٦ - في النقد التطبيقي د. عماد الدين خليل.

١٧ - الشيخ أبو الحسن الندوي دراسات وبحوث - مجموعة من الكتاب.

١٨ - د. محمد مصطفى هدارة - دراسات وبحوث - مجموعة من الكتاب.

١٩ - معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢٠ - القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر - حليمة بنت سويد الحمد.

٢١ - قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٢ - قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية» محمد رشدي عبيد.

الفهرس

كلمـــات للوداع ٥
أول الـطـريـق ١١
الـــدائـــرة ١٤
القـــرد والعنب ١٦
على هامش الحـــزن ٢٢
غـضب وحـزن ٢٩
مـــرة ثانيـــة ٣٣
على سلم الطائرة ٣٦
لحظة خـائفـة ٣٨
المرأة والـهـزيمة ٤٧
غـزة من بعـيـد ٥٠
التـحليق على ارتفـاع منخـفض ٥٤
الهموم تصحو باكراً ٥٩
الحـــزن والذكـريات ٦٤
العودة إلى المستقبل ٦٧
الـوجـوه والقلوب ٧٣
الخـــوف والموت ٧٩
عـــذاب الانتظار ٨٦
الـوهم والاعـتـــذار ٩١

صغيرة على الحياة ٩٤
الميـــلاد ٩٦
الصـغـيـر والحب ٩٩
الطفولة واليـهـود ١٠٣
لا يشبـه أحـداً ١٠٦
ذات يـــوم ١١٠
الحـزن والحـزن ١١٤
القلب الضعيف ١١٩
أوّل مــرة ١٢٢
بداية الطريق ١٢٦
الشـرفات الحـزينة ١٣٠
الصمت يفرش الطريق ١٣٥
المطر والرحيل ١٤٦
الألم أكـثـر صدقـاً ١٤٨
نهـاية الطريق ١٥٣
بين الأرض والسماء ١٥٨
القلـب والموت ١٦٤
مـرة ثالـثـة ١٦٨
لن أمــوت سُــدى ١٧٠
الفــهـــرس . . . . ، ، ، ١٨٠